دراسات فى الإسلام

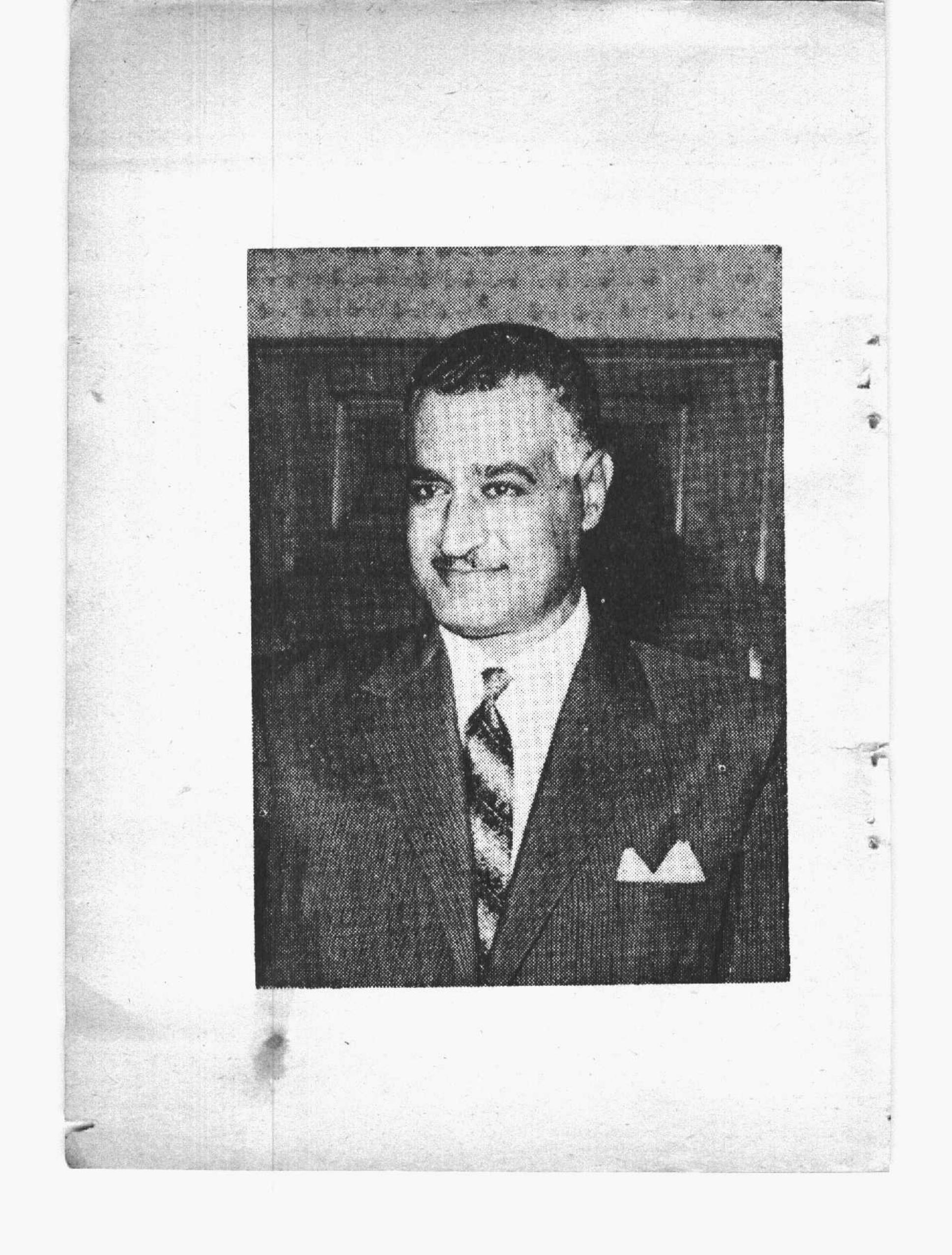
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة

مقومات السفراء فى الإسلام

للأستاذ حسين فتح الباب

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

العدد ١١٤
السنة العاشرة
١٥ شعبان ١٣٩٠ هـ
١٦ أكتوبر ١٩٧٠ م



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ..

« صدق الله العظيم »

تمهيد

السفير فى اللغة هو الرسول والمصلح بين القوم وجمعه سفراء ، وقد جاء فى القاموس المحيط للفيروزابادى فى مادة سفراء : « سفر وأسفر بين القوم أصلح ، ومصدرها سفر وسفارة — بكسر السين وفتحها — فهو سفير » • كما جاء فى لسان العرب : « وقد سفر بينهم يسفر سفرا وسفارة بمعنى أصلح • وفى حديث الامام على رضى الله عنه أنه قال لعثمان ابن عفان رضى الله عنه : ان الناس استسفرونى بينك وبينهم أى جعلونى سفيرا وهو الرسول المصلح بين القوم • يقال سفرت بين القوم اذا سعيت بينهم فى الاصلاح » •

ويبين من هذا أن سفارة كلمة عربية أصيلة ، وذلك على خلاف كلمة دبلوماسية فهى من الكلمات المستوردة التى لم تدخل فى لغتنا الا حديثا ، فان العرب فى الجاهلية والاسلام لم يكونوا فى حاجة اليها بالنظر الى وجود لفظة عربية الاصل تعطى مدلولها وتغنى عنها • وترجع ، كلمة دبلوماسية فى أصلها القديم الى

اللغة الاغريقية ، وكانت تعنى الوثيقة أو المكاتبة التى تطوى كما يطوى الخطاب أو الصحيفة أو السجل ، ويبعث بها الحكام بعضهم الى بعض فى علاقاتهم الرسمية ، وتخول حاملها امتيازا خاصا .

وقد انتقلت كلمة دبلوماسية من اليونانية الى اللاتينية ومنها الى اللغات الاوربية كالانجليزية والفرنسية ثم الى اللغة العربية ، وتطور استعمالها فى أكثر من معنى عبر العصور المختلفة حتى أصبح مدلولها فى العصر الحديث ينصرف الى فن ادارة العلاقات الخارجية للدولة ، أو هو بمعنى آخر ممارسة الدولة لسياستها الخارجية عن طريق المفاوضات وغيرها من الوسائل السلمية دونما حاجة الى تنفيذ سياستها فى المحيط الدولى عن طريق الالتجاء الى الحرب . وثمة معان أخرى متنوعة تستعمل فيها كلمة الدبلوماسية جوازا ، الا أن المدلول الذى أشرنا اليه هو المعنى المألوف والاكثر شيوعا .

ومن هذه المعانى المتعددة التفاوض أو المفاوضات فيقال : حل النزاع بالطرق الدبلوماسية . ومنها الذكاء والكياسة وما ينطوى عليه هذا المعنى من اللباقة وحسن التصرف لكسب الود والثقة ، أو لاتقاء مشكلة ، أو للحيلولة دون نشوب نزاع

أو استفحال خلاف ، أو لتحقيق غاية بعيدة بالاساليب الودية ودون استخدام العنف • وما زالت الدبلوماسية تستخدم بمعناها الذى استعملها فيه الرومان وهو صفات المبعوث أو السفير أى الشخص الذى يوفد فى ممهة ، وما قضت به تعليمات السفارة حينئذ من وجوب التزام الادب الوافر واصطناع المودة وتجنب أسباب النقد •

ويستخدم لفظا الدبلوماسى والسفير بمعنى واحد أى أنهما لفظان مترادفان • وقد استقر الاصطلاح فى العصر الحديث على أن السفير هو المبعوث الذى توفده دولة ما فى مهمة من المهام ، فيسعى لانجازها من طريق المباحثات وغيرها من أساليب الدبلوماسية مع ممثلى الدولة المرسل لديها ، أو هو — بتعبير آخر — وكيل حكومته المرخص بتمثيلها لدى دولة أخرى فى جميع المفاوضات الهامة • فالسفير فى عرف علم السياسة هو ذلك الشخص المرسل رسميا من دولة الى دولة أخرى ليكون نائبا عنها أو وكيلا لها • وقد تكون مهمته قاصرة على نقل رسالة شخصية أو خطاب شفهى أو مذكرة الى رئيس تلك الدولة أو أحد أصحاب السلطة فيها • ويخلع القانون الدبلوماسى على السفراء والمبعوثين حصانات واعفاءات معينة تعرف بالحقوق

والامتيازات الدبلوماسية التى نشأت بتواتر العرف الدولى •
وللسفارات أغراض شتى تختلف باختلاف مقاصد الدبلوماسية وأهدافها • فثمة سفارات تجارية ، وسفارات سياسية ، وأخرى عسكرية كما سنبين ذلك تفصيلا فيما بعد •

المؤلف

الفصل الأول

السفارات العربية والإسلامية

المبحث الأول

السفارات قبل الاسلام

ولقد كان المعنى الحديث لكلمة سفارة معروفا فى تاريخ العرب والاسلام ، فكانت السفارة فى الجاهلية من المناصب التى دانت لقبيلة قريش وبطونها ، وكان معناها عندهم أنهم كانوا اذا وقعت بينهم وبين غيرهم من القبائل حرب وأرادوا المخابرة بشأن الصلح بعثوا سفيرا ، وان نافرهم حى لمفاخرة جعلوا السفير مفاخرا ورضوا به •

ومن ثم عرف العرب نظام السفارة بينهم وبين غيرهم من القبائل والامم والشعوب المجاورة ، فاستخدموه فى تنظيم العلاقات بين بعضهم وبعض ، وبينهم وبين غيرهم • وكان من الطبيعى أن تكثر الوفادات والسفارات فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، بوصفها وسيلة ليس ثمة بديل منها للخروج من عزلتهم فى شبه الجزيرة ، ولتبادل المنافع مع جيرانهم وخاصة فى الشرق والشمال ، فضلا عن حاجتهم الى كسب الانصار فى

المعارك الضارية التى كانت تنشب بين القبائل أو لوقف هذه المعارك • ومن ثم أدت السفارات أغراضها لديهم سواء فى السلم أو فى الحرب •

وساعد على ازدهار السفارات ، ودخول العرب فى علاقات ودية وروابط عهدية مع جيرانهم ، واقامتهم أنظمة وتقاليد راسخة فى علاقاتهم ومعاملاتهم الخارجية — ساعد على ذلك ، الموقع الاستراتيجى لشبه الجزيرة العربية والناشىء عن متاخمتها مراكز الحضارات القديمة فى العالم ، وهى الحضارة الآشورية فى العراق ، والحضارة الفينيقية فى الشام ، والحضارة الفارسية فى بلاد الفرس ، وقرب الجزيرة من الحضارة الفرعونية فى مصر • وكانت أكثر الدول صلة بالعرب دولتا الفرس والروم وهما أكبر قوتين سياسيتين فى العالم فى ذلك الحين • ومن ثم توالت السفارات السياسية بين حكام هاتين الدولتين وبين القبائل العربية المقيمة على الحدود لعقد المحالفات والاتفاقات المختلفة •

وكما كانت وحدة اللغة باعثا على توثيق صلات العرب ببعضهم قبل الاسلام ، فان مركزهم التجارى الممتاز بين الممالك والبلاد الاخرى فى الشرق والغرب والشمال كان باعثا على الاتصال وقيام العلاقات الودية • اذ كانت شبه الجزيرة العربية معبرا وملتقى للقوافل التجارية التى كانت تتخذ عدة طرق

يبرز بينها طريقان أساسيان : أولهما الطريق الشرقى وهو يتاخم الخليج العربى ، ويتاخم دجلة ، ويقتحم بادية الشام الى فلسطين • والثانى الطريق الغربى ويتاخم البحر الاحمر • وعن هذين الطريقين كانت تنتقل مصنوعات الغرب الى الشرق، ومتاجر الشرق الى الغرب • وقد اقتضت هذه التجارة الدخول فى محادثات لعقد الاتفاقات بين تلك الجماعات البشرية بعضها وبعض ، وأتاح موقع الجزيرة لسكانها مكانة تجارية ممتازة وروابط حميدة فى العالم المعروف اذ ذاك • وتحفل كتب التاريخ بأخبار رسلهم الى الملوك ووفاداتهم ومفاوضاتهم ، بل لقد قدمت اليهم بعثات من البلاد الاخرى تخطب ودهم وتطلب مؤازرتهم•

والى جانب العلاقات التجارية الخارجية بين العرب وبين البلاد المجاورة ، كانت ثمة علاقات مماثلة بين القوى السياسية داخل الجزيرة العربية • فكان هناك شريان تجارى يصل بين اليمن جنوبا ومكة شمالا • وقد ورد فى القرآن الكريم ذكر هذه الحركة التجارية النشطة بين مكة والشام شمالا وبينها وبين اليمن جنوبا ، وذلك بالاشارة الى رحلة الشتاء والصيف • ومن الطبيعى أن هذه الحركة كانت تتطلب اتصالات واتفاقات دبلوماسية بين القبائل بعضها وبعض ، وبين الممالك والبلاد الاخرى فى سبيل توطيد العلاقات التجارية •

ومما يسر هذه الاتصالات ودعمها على مختلف أنواعها أن بلاد الشام شمالا والجزيرة العربية جنوبا كانتا تضمان أعظم المقدسات الدينية ، فثمة بيت المقدس فى مدينة القدس ، والكعبة بيت الله الحرام فى مكة . فكانت القوى السياسية داخل الجزيرة وخارجها تنتهز حلول مواسم الزيارة والحج لعقد اللقاءات وابرام الاتفاقات والمصالحات والمحالفات ، الامر الذى نهجه النبى عليه الصلاة والسلام بعد بعثته اذ كان يخرج فى مواسم الحج لدعوة القبائل الى دين الله .

وعرف من سفارات الجاهلية سفارة عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أبرهة ملك الاحباش، وهو فى طريقه الى مكة، مفاوضا اياه على رد الابل التى استولت عليها طلائع جيوش الحبشة .

ووجد منقوشا على « سد مأرب » ما يفيد قدوم سفارات التهنئة على أبرهة من شتى الامصار والممالك سنة ٥٤٣ ميلادية، اثر انتصاره على الحميريين وتأسيسه أول دولة مسيحية باليمن ، وذلك ما يلى :

« وجاءت اليهم سفارة النجاشى ، وسفارة الروم ، وسفارة ملك فارس ، ومبعوث المنذر ، ومبعوث من قبل الحارث بن جبلة ، ومبعوث أبى خير بن جبلة ، جميعهم طلبوا مودتنا

بقوة من لدن الرحمن » •

ومن المعروف أن آخر سفراء قريش فى الجاهلية كان عمر ابن الخطاب قبل أن يسلم •

بيد ان سفارات العرب فى الجاهلية ظلت قاصرة على هذه الحدود ، فلم تستوعب — فى ميدان العلاقات الدولية — ما هو أفسح وأهم من مجرد العلاقات التجارية المرتهنة بظروفها •

المبحث الثانى

السفارات فى الاسلام

اولا : فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين :

فلما جاء الاسلام فى القرن السابع للميلاد طرأ تغيير جذرى فى ميدان السفارات ، شأنها فى ذلك شأن سائر الميادين من سياسية واجتماعية واقتصادية . فأصبحت منهجا ذا قواعد ونظم محددة تترسمها الدولة فى تسيير علاقاتها بغيرها من الدول عبر العصور المختلفة .

ومن ثم نشأ نظام السفارات الاسلامية وتطورت فى أغراضها ونظمها وأساليبها تبعا لنشأة الدعوة الاسلامية وتطورها . فلقد اقتضت طبيعة الرسالة أن يتخذ النبى من السفارات وسيلة لنشر دعوته وسبيلا الى تأليف القلوب ودستورا فى علاقاته العامة فى الجزيرة العربية ومع الامم والشعوب الاخرى .

فكان الرسول هو المعلم الاول للسفراء المسلمين ، وهو مؤسس نظم السفارات وواضع أصولها الثابتة وقواعدها

المحددة ومنهاجها القويم الذى اتبعــه خلفاؤه من بعــده فى سبيل تثبيت بناء الدولة الاســلامية والدفاع عن عقيــدتها وكيانها .

ولا غرو فالاسلام دين ودولة ، وهو شريعة النــور التى أنزلت للبشر كافة . ومحمد عليه الســلام هو مبعوث السماء الى العالمين ، أرسله الله مبشرا ونذيرا مصداقا لقوله تعــالى فى كتابه العزيز :

« يأيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » .

« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » .

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

فالنبى الكريم مرســل من عند الله ، فهو ســفير الرحمة الالهية وحامل رسالتها الى الناس جميعا . ويقول الله تعالى :

« يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وهذا التعــارف الذى تدعو اليه الآية الكــريمة انما يتم بالاتصال بين النــاس ، أو هو بمعنى آخر يتم عن طــريق

السفارة بين فرد وجماعة أو بين الجمــاعات بعضها وبعض أو بين دولة وأخرى •

ولقد خاض الرسول صلى الله عليه وسلم حروبا كثيرة ضد أعداء الاسلام ، ولكنه لم يقدم على حرب منها الا بعــد أن استنفد الوسائل الودية وفى مقدمتها السفارات • ومن ثم كانت الحرب فى الشريعة مشروطة بقصد حماية الدعوة والدفاع عن النفس • فلئن حض الاسلام على الجهاد فقد دعا كذلك الى نشر العقيدة بالطرق السلمية • قال تعالى :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة • وجادلهم بالتى هى أحسن » •

« ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون » •

« يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » •

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » •

« فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

فالجهاد أو الحرب الدائمة لم تكن بمثابة العلاقة الطبيعية أو الوحيدة القائمة بين المسلمين وغيرهم . ففى غير أوقات الجهاد كانت تقوم علاقات ودية بالوسائل الدبلوماسية بين الدولة الاسلامية وبين الامم والشعوب المحيطة بها .

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم » .

« لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى . فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » .

والرسول — صلى الله عليه وسلم — يتخذ الحكمة وهى أولى مقومات السفير أسلوبا لتبليغ رسالته ويجعل منها منهاجا لمعاملاته مع الناس جميعا . ويتجلى ذلك فيما سطر من كتب وما أوفد من بعوث الى القبائل العربية والى ملوك الدول المتاخمة للجزيرة ورؤسائها ، وفيما نظمه من مؤتمرات واجتماعات ، وما عقده من معاهدات للمحالفة أو الهدنة وفداء الاسرى أو تبادل المعونة وتحقيق المصالح المشتركة فى غير ذلك من الاغراض .

ومن ذلك يتبين أن السفارات العربية فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم تغاير ـ مضمونا وأهدافا ـ السفارات التى أوفدها العرب قبل الاسلام • اذ كانت سفارات العـرب فى جاهليتهم ـ كما تقدم ـ تتسم بالبساطة التى تتناسب مـع ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية ، وتستهدف أساسا انشـاء الروابط التجارية بين القبائل العربية بعضها وبعض من جانب وبينها وبين الدول المجاورة من جانب آخر • أما السـفارات الاسلامية على عهـد رسول الله فكان الغـرض الاول الذى تستهدفه هو الدعوة الى الاسلام ونشر رسالته •

وهكذا تطورت نظم السفارات فى ـ ظل الاسلام ـ لتفى بهذه الحاجة الجديدة ودخلت فى مرحلة أكثر تقدما فى أسلوبها ومحتواها ونعنى بها السفارات الاسلامية فى نشأتها الاولى • وتختلف حلقات هذه المرحلة بحسب ظروف الدعوة وأغراضها وتطورها المرتقب فى المستقبل • فقد كانت العلاقات الخارجية التى أقامها الرسول قاصرة فى بداية الامـر على المحادثات الشخصية وارسال الكتب وايفاد البعثات الى القبائل العربية للتعريف بالدين والحث على الدخول فيه • ومن أجل هـذا الغرض كانت سفارات الصحابة الى مختلف القبائل ، وكانت المؤتمرات التى عقدت فى الجزيرة العربية لشرح مبادىء الاسلام

والاقناع بها ، وكانت المواثيق التى عقدها رسول الله مع الاوس والخزرج .

وهكذا تعددت وسائل الاتصال فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم بمكة من محادثات شخصية ومراسلات الى سفارات ومؤتمرات وعقد معاهدات حسبما كانت تتطلب الظروف . واستهدفت هذه الوسائل الدبلوماسية جميعها غاية واحدة هى الدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

فلما كانت الهجرة الى المدينة وأثمرت الدعوة وتحققت للعرب — لاول مرة — وحدتهم السياسية ، فقامت أول دولة فى المدينة برياسة النبى صلى الله عليه وسلم ، أصبح انتهاج أسلوب السفارات احدى الضرورات الجوهرية لدعم أركان الدولة الناشئة ، فاتسع نطاقها وتعددت وسائلها وأغراضها وتوطدت أركانها ودعائمها . فلم تعد علاقات المسلمين بجيرانهم قاصرة على التبادل التجارى ، بل امتدت الى مختلف النواحى الاخرى لشدة حاجة الدولة الجديدة الى الاتصال بالدول المجاورة فى سبيل تنفيذ السياسة الخارجية الاسلامية عن طريق ايفاد السفارات وارسال الكتب الى ملوك الدول المجاورة ورؤسائها .

وظل نشر العقيدة وتوسيع نطاقها الهدف الاساسى للسفارات

الاسلامية ، فاستخدمت جميع الاساليب لتحقيق هذه الغاية النبيلة • بيد أن الحروب التى خاضها المسلمون على عهد رسول الله بعد أن هاجر الى المدينة كان من شأنها توسيع أغراض السفارات ، فعقدت المعاهدات مع ممثلى الامصار والمدن المفتوحة لتنظيم الهدنة أو السلم وما يقتضيه ذلك من وقف القتال وتبادل الاسرى • ذلك أن الدولة الاسلامية قد استغرقت معظم حياتها فى عهده صلى الله عليه وسلم فىالحروب الوقائية دفاعا عن رسالة الحق • وقد غزا الرسول بنفسه سبعا وعشرين غزوة ، وكانت بعوثه وسراياه ثمانية وثلاثين ما بين بعث وسرية • فكانتبادل السفارات يكاد يقتصر على عقد الهدنة ودفع الجزية وما الى ذلك من الاغراض السياسية والعسكرية ، وكان ذلك أمرا طبيعيا بالنظر الى أن من طبيعة حكومة الثورات أن تقضى معظم سنى حكمها فى ارساء كيانها والدفاع عنه ضد القوى المعادية •

وكان عهد الخلفاء الراشدين امتدادا لعهد النبى الكريم ، فالدولة الاسلامية منصرفة الى توطيد أركانها ومد سلطانها فى أرجاء الارض ، فهى تخرج من فتح الى فتح ولا تزال مقاصد السفارات لديها تتركز فى بث الدعوة الى الاسلام واعلان الحرب دفاعا عن حماه والتمكين له بعقد المعاهدات • وهكذا كان

العمل الدبلوماسى وسيلة لتوطيد أركان الدولة بالافادة من الاسلوب الودى كبديل للحرب أو مساعد لها فى تنفيذ الخطط السياسية ، الامر الذى كان ينبع من طبيعة العقيدة الاسلامية

ثانيا : فى عصر الدولة الاموية :

ثم قامت دولة الامويين التى اتخذت دمشق حاضرةللخلافة. ولم تختلف السفارات الدولية كثيرا فى ذلك العهد من حيث طبيعتها وأغراضها عما كانت عليه فى عهد الخلفاء الراشدين ، اذ ظل هدفها الرئيسى هو تأييد الفتوحات الاسلامية فى سبيل نشر رسالة الاسلام والتمكين له ــ دينا ودولة ــ بالاقطار والمدائن التى لم يكن قد وصل اليها بعد ، والجهاد فى سبيل حمايته . فلم يحدث من هذه الوجهة تطور كبير فى مجال السفارات الدبلوماسية ، وانما كان التطور قاصرا على التقدم الفنى متمثلا فىأسلوب تلك السفارات وطابعهاوتنظيمها وتشعب ميادينها انعكاسا لقوة الدولة الاموية وبداية العصر العلمى والاخذ بأسباب الحضارة بعد الانفتاح على حضارات البلاد المفتوحة . وكان استمرار الحروب بين الدولة الاسلامية ودولة الروم لا يسمح بأكثر من تبادل السفارات لعقد معاهدات الهدنة أو تنظيم فترات السلم ودفع الجزية .

ومن ثم لم يدخل الخلفاء الامويون فى علاقات وطيدة مع

الروم ، ولم يسعوا بطبيعة الحال الى عقد أواصر الصداقة والتعاون معهم الا حينمـا كانت تضطرهم الظروف الداخلية الى ذلك • فكانت العلاقات السياسية الودية بين الدولتين قاصرة على الفترات التى شعر فيها الامويون بالرغبة فى اقامة هـذه العلاقات لاحتياجهم الى الاستقرار أو الى قدر من الهدوء الخارجى لمواجهة الثورات المعادية لهم فى الداخل • وقد عمـد خلفاء بنى أمية الى عقد معاهدات الصلح والسـلم مع الدولة البيزنطية فى أواخر القرن السابع الميلادى ، حتى يأمنوا الجبهة الخارجية ويتفرغوا للقضاء على الفتن التى نشبت فى البـلاد على أثر الانقسام والفرقة التى دبت فى صفوف المسـلمين فحولتهم الى أمويين وعلويين وشيعة • أما فى غير هذه الفترة ــ وهى قليلة نسبيا ــ فقد كانت المعارك الحربية مستمرة بـين الجانبين •

وازاء هذه الظروف السياسية والعسكرية ظلت السفارات السياسية الودية محدودة فى العصر الاموى حتى فى الفترات التى سـاد فيها السلام بين الدولة الاسلامية ودولة الروم ، فقد كانت تلك الفترات ــ فضـلا عن قلتها ــ لا تمثل سلاما دائما يسمح بقيام تلك السفارات وانما هى فترات سـلام مسلح أو صلح مؤقت •

وثمة عامل آخر حال دون ازدهار التبادل الدبلوماسى فى المجال السياسى والمجال الاقتصادى والمجال الثقافى وغير ذلك من مجالات السلام ، وهو أن النهضة فى تلك الميادين لم تعد طور البداية خلال تلك الحقبة ، اذ كانت الفتن التى أشرنا اليها والتى تمخضت عن الخلاف الذى نشأ فى أواخر عهد عثمان واستمر فى عهد على رضى الله عنهما تستأثر بمعظم جهود الدولة التى بذلت فى حصرها والقضاء عليها . والسفارات الدولية فى المجال السلمى وليدة عاملين لابد من توافرهما : الاول : استقرار الدولة ورخاء المجتمع وما يسفران عنه من تقدم ونهضة فى العلم والتجارة وغيرهما . والثانى قيام العلاقات الودية فى الميدان الدولى وما تؤدى اليه من تفاهم وتعاون فى سبيل قضاء المصالح المشتركة ، وهى علاقات تتوقف الى حد كبير على التوازن الدولى . ولا ريب أن السلم هو البيئة الصالحة لتدعيم الروابط الدولية من طريق تبادل السفارات .

ثالثا : فى عصر الدولة العباسية :

ولما انتهى العصر الاموى وأعقبه عصر بنى العباس ، تطورت السفارات الاسلامية تطورا على جانب كبير من الاهمية . ويرجع ذلك الى اشتداد ساعد الدولة الاسلامية حتى أصبحت فى طليعة القوى السياسية الدولية بل غدت احدى القوتين السياسيتين الكبيرتين فى العالم : قوة المسلمين ، وقوة

البيزنطيين • وقد امتدت رقعتها من أطراف الصين شرقا الى المحيط الاطلسى غربا ، فضـــلا عن اتساع أرجائها شـــمالا وجنوبا • فكان لذلك أثره البالغ فى السفارات المتبادلة بين دولة العباســـيين وامبراطورية الروم المســـيحية ــ الامبراطورية البيزنطية ــ التى كانت تبسط ظلها على آسيا الصغرى وبلاد البلقان وايطاليا • فازدادت تلك السفارات باتساع نطـــاق العلاقات الدولية بين الجانبين وتعددت أغراضـــها ووظائفها بحيث أصبح تبادل الســـفراء أو الممثلين الســـياسيين وسيلة لتوثيق العلاقات التجارية ، وتبادل الاسرى أو تبادل العطايا ، وفض المنازعات وعقد المعاهدات ، وغير ذلك من الاغـــراض السياسية والعسكرية ، كما استحدث غرض آخـــر للسفارات وهو تعزيز الروابط العلمية والثقافية بين الدول لمـــا يحدثه ذلك من اقرار علاقات المودة والســـلام بينها ودعم الحركة الثقافية فيها •

ومن هذا يتبين أن الحرب لم تكن هى العـــلاقة الوحيدة بين العبـــاسيين والبيزنطيين ، بل نشـــأت بينهما فى كثير من الاوقات عـــلاقات مودة وســـلام وفقا لمصالحهما التجارية ولمقتضيات التوازن الدولى •

ويرجع ذلك الى أن سياسة الفتوح فى عصر العباسيين لم

تســـتمر كما كانت عليه الحال فى عصر الخلفاء الراشـــدين والامويين • فلم تزد رقعة الدولة الاسلامية بل بدأت الحركات الانفصالية تعتريها فى أواخر هذا العهد ، فكانت فى حاجة الى الحفاظ على سلامة أرجائها أكثر منها الى الاستمرار فى الفتح • ومن ثم كان أكثر حروب العباسيين ضد البيزنطيين وغيرهم دفاعا عن دولتهم فى المقام الاول • وكانت تلك الحروب هى الجانب السلبى للعلاقات السياســـية • أما فى الجانب الآخر فقد اهتم العباسيون أكثر من الامويين بتوسيع دائرة علاقاتهم الخارجية السلمية • فسارت السفارات بينهم وبين القسطنطينية وروما ومملكة البلغار ودولة الفرنجة والهند والصين • وعقدت بيزنطة مع بغداد معاهدات الصلح وتبـــادل الاسرى فى عهد هارون الرشيد والمأمون والمعتصم ، وتبادلت معها السفارات فى مختلف الاغراض • وكان دعم الروابط العلمية والثقافية من أهم ما استهدفته السفارات الاسلامية من أجل توثيق علاقاتها مع جاراتها مما يشـــبه المهمة التى يقـــوم بها المستشـــارون الثقافيون فى سفارات الدول الحديثة اليوم •

وهكذا اقترن عصر استقرار الدولة الاســـلامية وازدهارها واتساع نفوذها وترامى أطرافها بازدهار السفارات الثقافيـــة بينها وبين الدولة البيزنطيـــة • فتبـــادل الجانبان الكتب أو

الرسائل التى كانت تصاغ فى أساليب ودية ثم دخلا فى مفاوضات أسفرت عن معاهدات لاقرار التبـادل الثقافى • وكانت تلك المعاهدات تنص على دراسة الكتب النادرة التى تتوافر لدى الجانبين أو فى مكتباتهما العامة ، وتبادل البعثات العلميـة ، وتيسير مهام الطلاب الباحثين فى جامعات المسلمين والبيزنطيين وفى عواصمهم •

رابعا : فى عصر الاموبين بالاندلس :

وفى عهد الامويين بالاندلس حيث أسس عبد الرحمن الداخل أحد أبنـاء البيت الاموى الذى تداعى أمام قوة العباسيين أمارة مسـتقلة سنة ٧٥١ م ، خطت السفارات الاسـلامية أشواطا بعيدة فى مجال التطور والتقدم • ذلك انه كانت ثمة أربع قوى سياسية كبرى : الدولة العباسية فى المشرق وعاصمتها بغداد ، ودولة الروم فى القسطنطينية ، والدولة الاموية فى الاندلس وعاصمتها قرطبـة ، ودولة الفـرنجة فى بلاد الغال (فرنسـا) وقد قامت فى زمن معاصر لقيام دولة الامويين بالاندلس واتخـذت « اكس لا شابل » عاصمة لها ، وحاول امبراطورها شرلـان سنة ٨٠ م أن يعيد مجد روما القديم وينافس الدولة الرومانية الشرقيـة التى تأسست فى بيزنطة وتزعمت العالم المسيحى • وأصبحت دولة الفرنجة فى عصر

هذا الامبراطور أعظم قوة فى أوربا الغربية ، واستطاعت بتحالفها مع البابوية فى روما أن تحد من نفوذ الدولة البيزنطية ، وتطلعت الى مد سلطانها الى شرق أوربا وبسط حمايتها على المسيحيين هناك •

وفى ظل هذه الظروف لعبت سياسة توازن القوى دورها فى العلاقات السياسية بين هذه الدول الاربع المتنافسة ، اذ كان ثمة تنافس بين العباسيين والروم الشرقيين ، ثم جد تنافس آخر بين بنى العباس فى المشرق وبنى أمية فى المغرب من جانب ، وبين البيزنطيين فى شرق أوربا والفرنجة فى غربها من جانب آخر •

وقد أحدث التغيير الذى طرأ على التوازن الدولى فى تلك الحقبة أثره فى العلاقات القائمة بين تلك القوى السياسية المتنازعة ، ونشأ عن ذلك تطور كبير فى السفارات • فلم تعد الحرب هى السبيل الوحيد لتنفيذ السياسة الخارجية للدولة وحل مشكلاتها وتحقيق أهدافها فى التوسع والسلطان ، وأصبح حد السيف لا يكفى — ازاء تلك القوى الدولية الكبيرة — لفض المنازعات بينها • فلم يكن بد من استخدام الدبلوماسية كاحدى الاصول التى يتعلمها رجال الدولة وينهجون على أساسها فى اقرار علاقاتهم مع الامم الاخرى • وأصبحت الدبلوماسية نظاما مدروسا تسير عليه الدولة فى علاقاتها الخارجية •

لقد كانت حاجة الروم الى العرب ماسة ومستمرة ، وكانوا ضعفاء أمامهم منذ وحدة العرب أيام الخلافة الاســلامية • فلا غرو أن تغدو هذه الحاجة أشد بعد الانشقاق الذى دب فى صفوف المسيحيين وقيام دولة الفرنجة ومنافستها للامبراطورية البيزنطية ، هذا فضلا عن ظهور الامم البربرية المستقلة على حدود الرومان ، وأن يؤدى هذا الى أن تلجأ تلك الامبراطورية الى التفاهم مع جيرانها العرب ، وأن تســعى الى محالفتهم لمقاومة أعدائها وتأمين جبهتها الداخليــة ، كما يتجلى ذلك فى مفاوضــاتها مع هارون الرشــيد والمأمون والمعتصم • وقد انعكس هــذا التطور الدبلوماسى على الســفارات بمختلف أغراضها ولا سيما الثقافية منها فتواتر سير السفارات الاسلامية من بغداد الى عاصمة الرومان •

ولمــا نافست دولة عبد الرحمن الداخل فى الاندلس سلطان الخلفاء العباسيين فى بغداد ، اتجهت الخلافة العباسية الى دولة الفرنجة القائمة على حدود الاندلس تنشد محالفتها ضد الامويين ، واستعانت فى سبيل دعم أواصر المودة والصداقة بينهما بالتبادل الدبلوماسى ، فسيرت السفارات فيما بين بغداد وعاصمة الفرنجة • وقد تعددت الوفود بين الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور وبين سيد الفرنجة ، وبين هارون الرشيد وشرلمــان •

ولم تحقق الدولة البيزنطية مآربها فى محالفة العباسيين ضد الفرنجة ، اذ كان هؤلاء — كما أسلفنا — يسعون للتحالف مع دولة الفرنجة ضد بنى أمية فى الاندلس • وقد حاول شرلمان مهاجمة دولة الامويين ولكنه لم ينجح ، فكان من الطبيعى أن يقيم البيزنطيون علاقات دبلوماسية مع دولة الاندلس وبلغت تلك العلاقات أوجها فى عهد الامبراطور قسطنطين الرابع ، والخليفة الاموى عبد الرحمن الناصر • وسارت السفارات بين القسطنطينية وقرطبة مثلما سارت بينها وبين بغداد • وكان للسفراء المسلمين فى القسطنطينية مكان الصدارة بين الممثلين الدبلوماسيين ، ولسفراء العباسيين الاسبقية فى الترتيب على سفراء الامويين •

وقد أدى التوازن الدولى — كما تقدم — الى قيام السفارات الاسلامية من قرطبة الى العواصم الاوربية بقصد توثيق الروابط السياسية والعلمية والاجتماعية بين الدولة الاموية فى الاندلس ودولتى المسيحية فى القسطنطينية واكس لاشابل ، ثم بينها وبين جماعة النورمان فى الجزر البريطانية التى بدأت تظهر كقوة سياسية جديدة فى ذلك الحين •

وقد بلغ التبادل الثقافى ذروته فى ذلك العهد بفضل النهضة العلمية التى ازدهرت فى العواصم الاسلامية والمسيحية ، فقد كانت بغداد وقرطبة والقسطنطينية مراكز اشعاع للعلوم والفنون

والآداب ، تتنافس كل منها الاخرى فى التزود بالعلم والثقافة ، والبحث عن كل جديد ومبتكر من المعارف والافكار ، وتشجيع العلمـاء والطلاب على البحث والدراسـة • ولقد لعبت تلك السفارات دورا هاما فى اقرار السلام بين تلك القوى الكبيرة التى كانت تحتل مسرح السياسة الدولية حينئذ •

وموجز القول فى تاريخ السفارات فى الاسلام أن العـرب لمـا تحضروا فى ظل شريعة التوحيد والحق والحرية وأخذوا بأسباب المدنية بعد رسوخ قدمهم فى مملكتهم الواسعة الاطراف وكثرت علاقاتهـم بالدول والممالك المعـاصرة لهم ازدهرت السفارات فى عهدهم ، فكانوا يرسلون ممثليهم — وعلى الاخص فى عهـد العباسيين الاول والثانى — الى الملوك والامراء ، ليس فى أحوال الصلح فقط ، بل كذلك فى المخابرات والمفاوضات السياسية والودية وحوادث المصادرة • ولم تقتصر السفارات على الخلفاء والامـراء المسلمين بعضهم وبعض ، بل شملت علاقاتهـم التجارية والسـياسية والثقافيـة مع رؤساء الدول الاجنبية • فجرت السفارات الاسلامية بين العباسيين وملوك الشرق فى الهند والصين ، كما جـرت بين ملوك أوربا وملوك الاسـلام فى الشرق والاندلس • والتاريخ حافل باخبـار السفارات التى كانت لا تنقطع بين الخلفاء المسلمين فى الاندلس وبين ملوك الافرنج •

الفصل الثاني

أهمية مهنة السفارة على المستويين الوطني والدولي

المبحث الأول

تبادل السفارات ضرورة حيوية

تضرب السفارات بجذورها الى أول مجتمع بشرى ، فهى احدى الدعائم الاساسية التى قامت عليها المجتمعات الاولى بدافع حب البقاء والحرص عليه والدفاع عنه . ذلك أن الانسان مدنى بالطبع ـ كما يقول ابن خلدون ـ ومن ثم انتهج الاسلوب الدبلوماسى فى سبيل التعارف والتفاهم والتآلف والعيش فى سلام مع الآخرين ، مصداقا لقوله تعالى : « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ويتبين من ذلك أن تبادل السفارات حاجة حيوية لاشباع الغريزة الاجتماعية فى الانسان ، ولتنظيم العلاقات بين الجماعات بعضها لبعض ، اتقاء لاضطرابها وما يترتب على ذلك من تفانيها بالحروب . فمن طريقها اتفقت المجتمعات الاولى

على حقوق كل منها وواجباته فى الحرب والسلام ، فأمنت بذلك حياتها ، كما اتفقت على تدعيم هذه الحياة فى مجالات العيش المختلفة من زراعة وتجارة وغيرها وذلك بالعمل على اذابة الخلافات والمنازعات فيما بينها والتعاون على الخير وتبادل المنافع •

وهكذا قامت السفارات منذ أقدم العصور بدور كبير مؤثر فى الحد من المنازعات بين الجماعات والشعوب ، ومنع التناقضات التى تفصل بينها من التحول الى صراعات دموية • وقد نشأت من أساليب التفاهم والتفاوض بين الجماعات المختلفة مجموعة من القواعد والنظم التقليدية ثبتت بالتكرار ورسخت بالتواتر وأصبحت تمثل رأيا عاما يعرض من يخرج عليه لنفور الجماعات وقطع الروابط التى تصلها به مما يمهد لعزله وما يشكله ذلك من ضغط عليه يضطره للعودة الى صفوفها •

ومن هنا تكونت على مر العصور قوة معنوية جديدة تكمن خلف هذه التقاليد الدبلوماسية وتخلع عليها نوعا من التقديس ، وتعينها على الوقوف فى مواجهة قوى الجماعات المتصارعة فيما بينها والتى تتمثل فى عدد كل منها وعدته وما وراءهما من طاقات وموارد تعززها • ويرجع الى هذه القوة الجديدة فضل

استمرار الجماعات على الرغم مما بينها من خلافات ، وايمانها بالسلم ودفاعها عن الحق والعدل والقانون وما أدى اليه ذلك من تعاونها معا فى سبيل رفع مستواها وتقدمها فى مدارج الرقى والحضـــارة .

ونخلص من ذلك الى أن الدبلوماسية مسلك اجتماعى فطرى انتهجته الاسر والعشائر والقبائل والجماعات القديمة وحرصت على اتباعه فى ســـبيل تثبيت الامن والسلام والاستقرار فى العلاقات العامة بينها ، حتى أصبحت تلك الوسائل قواعد عرفية وتقاليد مرعية تلجأ اليها الامم والشعوب كلما ساءت العلاقات بينها واختل ميزان القوى .

ومما تقـــدم يتبين أن تبادل الســـفارات هو أداة تحقيق السياسة الخارجية للدولة . وفى ضوء التمييز بين الدبلوماسية والسياسة الخارجية يتبين أن الســـفير الدبلوماسى هو عماد رجل السياسة فى تنفيذ المنهج الذى يخططه لتســـير الدولة بمقتضاه فى علاقاتها السلمية حتى تستطيع أن تحقق أهدافها فى جو من الهدوء والحكمة والاحاطة بالمصالح العامة . وقد تلجأ الدولة الى اعلان الحـــرب لتنفيذ أغراضها اذا فشلت الاساليب الدبلوماســـية . ومن ثم فان الدبلوماســـية وسيلة

لتحقيق السياسة بالطرق الودية فى حين أن الحرب أداة لتحقيق السياسة بالقوة • ولا يفهم من هذا أن الوسائل الدبلوماسية ينتهى دورها باندلاع الحرب ، بل انها تظل تباشر مهمتها فى أثناء اندلاع الحرب ، وذلك بالدخول فى محادثات مع الدول الاخرى المحايدة لاقناعها بالانحياز معها أو بالتوسط بينها وبين الطرف الآخر لوقف الحرب مؤقتا أو نهائيا ، ثم تباشر مهمتها أيضا بعد انتهاء الحـــرب بالدخول فى مفاوضات مع العـــدو — سواء بطريق مبـــاشر معه أو عن طريق وسيط — بقصـــد تصفية آثار الحرب مثل الاتفاق على تخطيط الحدود المشتركة أو تبـــــادل الاسرى أو دفع التعويضـــات وما الى ذلك من الاغراض •

وهناك نوعان من الدبلوماسية هما دبلوماســـية الســـلام ودبلوماسية الحرب • ونقطة الالتقاء بينهما أن كلا منهما يقوم على الطرق الودية ، ولكنهما يختلفان فى الغرض ، اذ تستهدف الاولى المعاونة على اقامة السلم ، على حين تستهدف الثانية المعـــاونة على الدخول فى الحـــرب وكســـبها • وبديهى أن دبلوماسية السلام أداة لتثبيت الامن بين الدول بشرط أن يكون هذا السلام قائما على العدل ، لا على الاقرار بالامر الواقع القائم على اغتصاب الحقوق • وكذلك الامر فيما يتعلق بدبلوماسية

الحرب ، فقد تكون وسيلة للعدوان كما قد تكون وسيلة لاقرار الحق والعدل والقانون اذا فشلت الوسائل الودية فى مواجهة عدو غاصب • وفى كلتا الحالتين تلجأ الدولة الى كسب أكبر عدد ممكن من مراكز القوى الخارجية لتحقيق الاهداف التى تتوخاها دبلوماسية السلام أو دبلوماسية الحرب •

المبحث الثاني

السفارة مهنة العظماء

يتبين من استعراض الاغراض التى تستهدفها السـفارات مدى أهمية الاعمال التى يضطلع بها رجالها بوصفهم جماعة من الممثلين الرســميين الدائمين أو المؤقتين الذين يأخـذون على عاتقهم تنفيذ سياسة حكومتهم فى الخارج ، والذين يتخذون من هذا العمل وظيفة لهم تتسم بشرف أدائها ودقتها وخطورتها على المستويين القومى والعـالمى . فهى من أعظم المهن التى يكرس الفرد النابه الكفء حياته لاتقانها والافادة برسالتها .

فالفن الدبلوماسى — كمـا يطلق على وظيفة السـفراء فى المصطلح الحـديث — يمثل قوة الدولة فى صـلاتها بالعالم الخارجى لانه يجمع بين جنباته العوامل المختلفة التى تمثل هذه القوة ، ويحاول رجال هذا الفن استغلال تلك العوامل بمهارة فى دعم سلامة دولتهم والمحافظة على كيانها ، وذلك

بكسب الاصـــدقاء وشل ارادة الاعداء وتحطيمها • ويصـــل التوفيق بهؤلاء الرجال الى الذروة عندما ينجحون فى تحويل الاعداء الى أصدقاء أو على أقل تقدير الى محايدين • وهم يقومون بدور الدعاة لقوة الدولة وامكانياتها ، واليهم يرجـــع الفضـــل فى تبوؤ الدولة المركز اللائق بها والذى تؤهلها له مقوماتها حين يحسنون أداء واجبهم ويعرفون كيف يكونون رأس مال من الثقة والصداقة فى ميدان السياسة الدولية •

ولـــا كانت المهمة الاولى للسفير هى توثيق علاقات دولته مع الدول الاخرى حتى تطمئن الى سلام يساعدها على السير قدما فى جو من الاســـتقرار دون الزج بهـــا فى حمأة التهـــور السياسى وفقدانها مكانتها الدولية وانغماسها فى مغامرات قد تضيع عليها مصالحها الحيوية ، مما يضعف من شأنها ويورث الشعب الوهن ، ويفقده قوى هامة مادية ومعنوية ، وقد يزج بها فى حرب مريرة تقضى على مستقبل الامة • لـــا كان الامر كذلك ، فلا مناص من اختيار السفراء ممن يتصفون بالقدرة على المفاوضة • ذلك لان تنظيم العـــلاقات الدولية انما يبدأ بالتفـــاوض ، فعقد الاجتمـــاعات ، ثم ابرام الاتفـــاقيات والمعاهدات •

وقد يسير هذا العمل سيرا منتظما كمجرى النهر الضخم فى

الوادى المنبسط السهل ، وقد تعترضه العقبات والشلالات ، فيتعثر فى المسير • والسفير الكفء هو الذى يتلافى المنازعات ، ويحل المشكلات ، ويكسب المعركة بالاقناع والتأثير فى الطرف الآخر تأثيرا خفيا أو ضمنيا دون أن يظهر لهفته وتهافته على حل المشكلة •

ومن ثم ، كانت السفارة مهنة رجال الدولة وعظمائها ، وكان حرص الامم والشـــعوب قديما وحــديثا على حسن اختيار سفرائها المفاوضين • فالسفير هو عنوان دولته ورمز مكانتها فى المجتمع الدولى ، وبقدر ما يحققه من نجاح فى مهمته تنجح الدولة فى تنفيذ سياستها الخارجية وتحقيق مقاصدها سواء فى أوقات السلم أو الحــرب •

الفصل الثالث

المقومات الشخصية للسفراء في الإسلام

نتبين من طبيعة المهام والمسئوليات التى ينهض بها السفير فى سبيل تأدية رسالته ، أنها تتطلب قدرات خاصة لا تتوافر الا فى أنماط معينة من الرجال • ومن ثم لا يصلح لمباشرة مهمة السفارة الا الاشخاص الاكفاء الذين يرتفعون الى مستوى الاهداف المنوطة بهم • وتتمثل هذه الكفاية فى الشخصية القيادية •

ذلك لان الشخصية القيادية تتميز بالمقدرة على التأثير فى الناس بقصد بلوغ الهدف المنشود أو هى — بتعبير آخر — الشخصية القادرة على توجيه سلوك فرد أو جماعة فى موقف معين لتحقيق هدف أو عدة أهداف مرسومة • فهى ذات اشعاع يسرى تياره الى الآخرين فيتأثرون ويؤمنون بهذا الهدف ويتعاونون مع صاحبه فى سبيل انجازه •

ولما كان السفير داعية لدولة وصاحب رسالة يؤتمن على القيام بها ، فان سبيله الى النجاح فيها هو التأثير فيمن يخاطبه للحصول على اقتناعه بالفكرة أو المبدأ الذى يدعو اليه ، وتأييده لهذه الفكرة أو ذلك المبدأ • ولا يتأتى هذا التأثير الا لمن أوتى موهبة القيادة • وتتشكل هذه الموهبة من مناقب ومؤهلات معينة تخلع على صاحبها طابع الشخصية القيادية ، ذلك الطابع الذى يميز رجال الدولة سواء فى مجالات السلم أو مجالات

الحرب ، فتنزلهم الجماعة منها منزلة الحكام وتكل اليهم تدبير شئونها وحل مشكلاتها وتوفير أمنها ورخائها ، لما تتوسمه فيهم من القدرة على السير بها فى سبيل تحقيق المقاصد والآمال التى تجيش فى صدرها .

وثمة عدة نظريات تفسر الشخصية القيادية ، تذهب أولاها الى أن القائد يتمتع ببعض السمات التى تؤهله للقيادة ، على حين يفتقر التابع الى هذه السمات ولذلك لا يمكنه القيام بالدور القيادى . ويطلق على هذه النظرية نظرية السمات . بيد أن كثيرا من النقد قد وجه الى هذه النظرية نظرا الى أنه لا يمكن تحديد السمات التى أشارت اليها بصفة دقيقة . واذا كان للقيادة بعض مقوماتها التى يجب أن تتوافر فى القائد ، فان كل تلك المقومات لا ترتقى الى سمات على درجة عالية من الثبات .

وتذهب النظرية الثانية — وهى نظرية المواقف — الى أن القيادة لا ترتبط كلية بالفرد القائد ، بل انها ترتبط أيضا بالعلاقة بينه وبين أعضاء الجماعة ، وأن العامل المشترك بين القادة ليس هو سمات معينة ، ولكنه مقدرة القائد على اظهار معرفة أفضل أو كفاءة أكثر من غيره فى مواقف معينة ، ومعنى هذا ان الموقف هو الذى يحدد القائد . ولما كان الموقف يحدد

بعض المعـــايير التى تتضمنها العنـــاصر المتداخلة فيه ، فان الشخص الذى تنطبق عليه تلك المعايير أكثر من غيره هو الاقدر على التعامل مع الموقف من غيره ، فيصبح تبعا لذلك هو القائد • وربما لا تنطبق على نفس الشخص معايير موقف آخر ، فلا يصبح قائدا ، وربما أصبح تابعا لشخص كان يقوده فى موقف آخــر •

ويتبين من ذلك أن فيصل التفرقة بين النظريتين ــ ان نظرية السمات تحدد عدد القادة وتحصرهم فى دائرة ضيقة ، على حين أن نظرية المواقف توسع من قاعدة القيادة ، بمعنى أن كل شـــخص يمكن أن يغـــدو قائدا فى بعض المواقف ، وذلك اذا توافرت فيه الصفات التى يتطلبها الموقف •

وثمة نظريات أخرى فى تفسير القيادة ، ومع ذلك فان جميع النظريات ــ على اختلاف مذاهبها ــ تسلم بأن للقيادة مقومات عامة ينبغى توافرها حتى يمكن أن نطلق على صاحبها وصف القائد • وقد أجمع الباحثون على أن القيادة فى أى مجال من المجالات موهبة تصقلها الممارسة والتجربة ، وأن القائد تتوافر فيه عدة خصائص وميزات أولاها الشجاعة والجــرأة ، ثم الذكاء ، وبعد النظر ، وقوة الخلق ، وفهم الطبيعة البشرية • ومن أهم صفات القيادة كذلك ، العلم ، والتجــربة ، وسرعة

الخاطر ، والقدرة على البت فى اللحظات الدقيقة الحرجة ، ثم الحماسة ، وروح الابتكار ، وحب المغامرة ، والفطنة ، والفراسة، وصحة الحكم ، والقدرة على التنظيم ، وحسن الادارة ، وقوة التأثير ، والنفوذ الشخصى ، والحرص ، والرزانة ، وحب العدالة، وروح الشرف ، والواجب نحو الله ، والوطنية ، والتجرد من الحسد ، أو التطلع للمجد الشخصى ، والصمود للمحنة ، وهذه الصـفات كلها أو جلها قد توافرت فى القادة العظام الذين خلدهم التاريخ .

وقد انتهى الباحثون من تحليل نفسية الفرد وروح الجماعة ، ودراسة الحوافر ، ومتابعة حركة التاريخ وتطور الحضارات ، واستقراء سير العظماء والابطال فى تاريخ الانسانية ، الى وضع عدة نظريات فى مقومات القيادة فضلا عن النظريات التى وضعت لتفسير القيادة . وتعزو احدى هذه النظريات ما يمتاز به القائد الناجح من صفات الى القوة النفسية الواحـدة . وتعزو الاخرى مزاياه الى القوى النفسية العامة ، على حين تذهب النظرية الثالثة الى أن صفات القائد انما تصـدر عن القوى النفسية الخاصة بنوع معين من القادة . ولئن اختلفت هذه النظريات الثـلاث فى مضمونها النفسى ، فان ثمة نظرية رابعة تنحو منحى مغايرا ، فتعزو جوهر صفات القائد الى القوة الجسمية .

وفى رأينا أن أفضل النظريات فى مقومات القيادة وأولاها بالفهم والدراسة هى تلك التى تقدم لنا تفسيرا صحيحا قوامه التحليل النفسى والاجتماعى لما يمتاز به القادة من قدرة فذة فى تآلف الافراد والجماعات • لذلك ، فنحن نؤثر الاخذ بالنظرية الاجتماعيـــة التى تقول ان علاقة القائد بالمجتمع هى علاقة اندماج وتكامل ، والقائد الحق هو الذى يستطيع بفضل مزاياه واخلاصه ان يحوز تقدير اعدائه قبل أصدقائه • وفى ضوء هذا المفهوم حددنا المقومات الاساســية للشخصية القيادية للسفراء فى الاسلام بمعنى الصــفات والمميزات التى تتوافر فيها • ولـــا كانت وظيفة السفير سياسية وفنية وأدارية فى آن واحد ، فان هذه المقومات تصدق على تلك المناحى الثلاث مجتمعة لضرورة توافر العناصر القيادية فى كل منها ، وهى أن تكون شخصية السفير القيــادية نابعة من صميم الجماعة التى أوفدته لتمثيلها ، وأن يكون الهدف الذى تسعى لتنفيذه محددا واضحا ، وأن تكون مؤمنة بهذا الهدف ، واعية بمبادئها ، قادرة على العمل فى سبيل تحقيقها ، ذات قدرة على التأثير بدون اســتعلاء ، ملتزمة بما تدعو اليه ، قدوة تحتـــذى فى سلوكها ، تغلب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، وتتوافر فيها صــفات الصبر والحكمة والشــجاعة ، ونفاذ البصيرة بالمســتقبل ، والتنبؤ باحتمالاته المختلفة وكيفية مواجهتها ،

والقدرة على التخطيط والتنظيم •

تلك هى أهم الصفات والمناقب التى يمتاز بها السفير ذو الشخصية القيادية فى الاسلام والتى تتضح من خلال مراجعة تاريخ السفراء والسفارات فى الدولة الاســلامية فى عصورها الزاهية • ولقد كانت هذه المناقب عاملا رئيسيا فى ازدهار دولة الاسلام وسيادة عقيدتها وحضــارتها فى معظم أرجاء العــــالم •

وسوف نتناول فى المباحث الآتية تلك المقومات التى تميز شخصية السفير فى الاسلام •

المبحث الأول

الانتمــاء والايمــان

ان قوة انتماء الفرد الى الجماعة تقع في المقدمة من مقومات الشخصية العقائدية الوطنية بوجه عام والشخصية الاسلامية بوجه خاص • وترجع أهمية هذا العنصر من عناصر الشخصية القيادية الذى اصطلح على تسميته بالانتماء الى عمق التأثير الذى يحدثه من توافر فيه هذا العنصر فى حياة مجتمعــه ، اذ يربط بينه وبين قومه برباط نفسى وفكرى ويجمــع بينهمــا فى سبيل واحد لتحقيق غاية واحدة • وقــد دلت الدراســات النفسية والاجتماعية التى تناولت سير القادة خلال العصور التاريخية المختلفة على صــدق هذه النظرية ، فأجمع الكتاب والباحثون والمتخصصون على ان الانتماء يحقق للقائد الاحساس بمشاعر الجماعة واحتياجاتها الروحية والمادية ، فيتجاوب مع أفرادها ، وطالمــا تحقق هذا التجاوب فان ثمة ضمانا لوجود أهم مقومات النجاح فى العمل •

فالمرء الــذى ينبثق من صميم الجماعة وتكتمل فى شخصــيته عناصر الصلاح علما وعملا وسلوكا ، سرعان ما تهوى اليه أفئدة

الفئة الصالحة منها بحكم تآلفها الوجدانى والعقلى والاجتماعى معه ، وشعورها انه لم يفرض عليها ، وانما اختــير من صميم بيئتها ومجتمعها • فهو قد نما وتطور فى ظل الظروف التى أحاطت بها والمراحل التى مرت بها ، وان كان يمتاز عن أفرادها بصفات ومناقب خاصة تجعله أهلا لشغل مكان الصدارة منها •

ومن هنا يلتقى الفرد والمجموع على أرض واحدة ويتفاهمان بلغة واحدة ويحسان بمشاعر مشتركة • وتلك هى نقطة الارتكاز التى تبدأ منها مسيرة الجميع على الطريق المؤدى الى تحقيق أكبر المنجزات ، فى ظل دفع مستمر اشبه بتيار يسرى فى الجماعة من تأثير القائد فيمن حوله وتأثرهم به فى حلقات متصلة بغير انقطاع، ويسفر هذا عن تفاعل ايجابى يؤدى بدوره الى تعاطف كل فرد مع الآخر ، وقيامه بدوره ، وتقديره لغيره وتعاونه فى سبيل وضع المبادىء والخطط المتفق عليها فى حيز التنفيذ العملى •

ولا يستطيع الــرئيس مهما بلغت كفاءته وجمــع بين يديــه من القوى أن يصل الى مرتبة القيادة اذا لم يكن منتميــا الى الجماعة ،بل يظل رئيسا فحسب ، لانه بغير هذا الانتماء يعجز عن التفاهم معها أو ادراك حقيقة أفكارها وأحاسيسها وتقــدير رغباتها ومعرفة مشاكلها والقدرة على تحليل هذه المشاكل للوقوف على الاسباب التى تكمن خلفها ووضع حل للقضاء عليها • ومعنى

هذا أن الرئيس الذى يفتقد الانتماء يصبح قريبا من الجماعة بشخصه ، ولكنه يظل غريبا عنها بالفكر والروح • ومن العسير فى ظل هذه العزلة أن يحقق أى نجاح فى ادارة شئون الجماعةوالسير بها فى سبيل انجاز الاغراض المنوطة به •

ومن الثابت أن فرض رئيس على مجموعة من الافراد غريبة عنه ، هو أحد الاسباب الجوهرية التى ينجم عنها سوء العلاقات والتفككوالاضطراب وتعذر حل ما يتزايد بالتبعية منمشكلات• ومثل هذا الرئيس غير المنتمى كثيرا ما يعنى بأمور تخـــرج عن محيط اهتمامات الجماعة ، ولا تتصل بمصالحهم اتصالا مباشرا وثيقا • فهو يجد نفسه تلقائيا — بدافع من عزلتـــه النفســـية والفكرية — مسوقا الى اتخاذ مركز مصطنع يؤكد به وجوده • — وهو يقيم هذا المركز على أساس السلطة المفروضة ويحقق به رئاسته الشكلية التى تتمثل فى الاثاثوالرياش والعرض دون الجوهر ، تمييزا لنفسه عن سائر أعضاء الجماعة ، وبعدا بذلك عن الموقع الحقيقى للعمل وما قد يعترضه من مشكلات تقتضى التصدى لها والبحث عن أوجه علاجها •

ولا شك أن المظاهر التى يلوذ بها مثل هذا الرئيس تمثل أكواما من الرسميات والكماليات الجوفاء قصد بها تغطية تصوره فى القيادة والتوجيه • وهى تنشىء حواجز مصطنعة بينه وبين

العاملين معه وتزيد مسافة الخلف بينه وبينهم ، فيصبح هو فى واد وهم فى واد آخر ، بل يصبح دخيلا على العمل تبعا لكونه دخيلا على العاملين • واذا تصدى لامر يتعلق بالعمل فهو لا يلمس الا القشور ولا يستطيع أن ينفذ الى الجذور •

كذلك ، فانه ينشأ عن عدم انتماء الرئيس الى الجماعة أن يلجأ الى أسلوب التفرقة بين المرءوسين بقصد اظهار سلطـــانه واخفاء عيوبه فهو يعمد الى المحاباة والتحيز ، فيقرب هـــذا ويبعد ذاك ، ويشغل الجميع بذلك عن تحقيق أهداف العمل ، على حين أن القائد المنتمى ينتهج أسلوبا آخر ، فهو حريص على على أن يؤلف بين الافراد فى وحدة متجانسة ، وأن يحثهم على تضافر القوى والجهود فى سبيل رفع شأن الجماعة • ومن هنا جاء وصف الشخصية القيادية بأنها تلك الشخصية القادرة على التأثير فى الناس لجعلهم فريقا واحدا يتعاون لتحقيق غـــرض ينشده • ولا تتسنى هذه القدرة بغير انتمائه •

واذا ربطنا بين مفهوم انتماء القائد الى الجماعـــة ــ كما أوضحنا ــ وبين أهمية الدور الذى يمارســـه السفير ، أدركنا ضرورة توافر عنصر الانتماء فى شخصية السفير الاسلامى

فان هذا العنصر هو الذى يدفع الى الولاء ، والولاء هو الحافز الى الاخلاص والتضحية • وغنى عن الذكر أنه لا نجاح للسفير فى مهمته مالم تتوافر فيه هذه الصفات • فالسفير المنتمى الى جماعة المسلمين أقدر على تفهم مشاعرهم وأهـدافهم وادراك نوازعهم الوجـدانية واتجاهاتهـم العقلية فى مختلف نواحى الحياة والمجتمع • كما أنه أقدر على التعبير عن هذه المشاعر والاهـداف والاتجاهات ، الامر الذى يضمن التزامه بها فى مفاوضـاته ومحادثاته مع الدول الموفد لديها • كما أنه بحكم نشأته فى قومه واختلاطه بهم وممارسته عاداتهم وتقاليـدهم ووسائل عيشهم يشب متطبعا باخلاقيـاتهم • فيصبح مثلهم عربيا مسلما شديد الاعتزاز بكرامته ، عفا أنوفا ، متمسـكا بأهداب العزة والكبرياء ، ويكون نعم الممثل لهم الحفيظ على سمعتهم ومكانتهم فى علاقاته مع غيرهم من الاقوام •

وكما تنعكس خاصية الانتماء على علاقات السـفير المسلم برؤساء البلاد الموفد لديها ، فانها تنعكس على علاقاته بحاشيته التى يصحبها فى سفاراته اذ تجعله قادرا على قيادتهم لتحقيق الهدف المشترك بحكم رابطة انتسابه اليهم ورعايته لهم وما ينجم عن ذلك من ثقتهم وتعلقهم به وتجاوبهم معه وتضحيتهم

فى سبيل انجاز الهدف المتفق عليه فى وحـدة منسقة كأنهم بنيان مرصوص يشد بعضه بعضا •

واذا تأملنا صفحات التاريخ العربى قبل الاسلام وبعده ، لاحظنا مدى اكتمال عنصر الانتماء الى الجماعة فى شخصيات السفراء ، ادراكا من الحكام العرب لاهمية هذا العنصر الاساسى فى نجاح المهام التى يوفدون سفراءهم للاضطلاع بها ، فهى مهام تتطلب فى المقام الاول أن يكون القائم بها مواليا لمرسله أهلا لثقته ، بعيدا عن الشـبهة فى أمانته ، منزها من المطامع والتطلعات الشخصية التى تغلب الصالح الخاص على الصالح العام • وتلك خلال لا تتوافر الا فيمن نشأ أصيلا فى قومه كريما فى منبته • أما الاجنبى الدخيل أو المطعون فى نسبه أو المـأجور فانه ــ فى كثير من الاحوال ــ لا يؤتمن على الاسرار التى تودع فى حوزته لانعدام رابطة الانتماء أو ضعفها ، مما قد يعـرض الدولة التى توفده للضرر نتيجة افشائه ما ائتمن عليه أو تقاعسه عن أداء مهمته لفقدانه روح الولاء وحافز التضحية •

فلا غرو ان كان ولاة الامر من خلفاء وأمراء وملوك يستوى فى ذلك العصر الجاهلى والعصر الاسلامى يختارون فى وفاداتهم الى الممالك المجاورة من هم أكثر تمثيلا للخصائص العـربية الاصيلة فى جوانبها المشرقة ، من عراقة محتـد وأصالة منبت

وكرم ونجدة وشجاعة وشرف ومروءة ونخوة وحماية للجار وذ ود عن الذمار وعفو عند المقدرة ،وما الى ذلك من خصائص الخلق العربى النبيل • فكان سفراؤهم من أكرمهم أرومة وأشرفهم عرقا وأمجدهم بيتا ، كما سنتبين ذلك بجلاء عند استعراض الشخصيات التى أوفدت فى العصور الاسلامية المختلفة ، واستقراء الوسائل التى انتهجها الحكام المسلمون فى اختيار سفرائهم واختبارهم ، ووصايا الحكام العرب لمبعوثيهم قبل رحيلهم •

ويأتى ايمان السفير برسالته كمقوم من مقومات الشخصية القيادية بعد الانتماء الى الجماعة • فمن المسلم به أن الايمان بالمبدأ والغاية هما أكبر الحوافز الحقيقية لانجاز أعظم الاعمال ، لانه بقدر قوة هذا الايمان وثباته يكون تأثر الناس بصاحب الدعوة أو الرسالة ودخولهم فيما يدعو اليه طواعية واختيارا لا جبرا واذعانا • ومرد ذلك الى أن الفصيل بين المحق والمبطل هو الاصرار والبلاء والتضحية ، وكلها صفات تعوز صاحب الدعوة الزائفة لانه طالب منفعة ذاتية سرعان ما يتخلى عنها اذا أدرك أن اصراره عليها سيورده موارد التهلكة أو سيصيبه بالضرر أو سيقتضيه بذل جهد لا يطيقه أو أن هذا الجهد لا يعادل المنفعة التى سوف يجنيها •

أما المؤمنون بقضيتهم فهم دعاة حق وأصحاب رسالة كبرى وغايات أسمى من المطالب المــادية الزائلة والمنافع الاشعبية الرخيصة • انهم يحملون تبعات جساما فى سبيل تأدية رسالتهم أو الاضطلاع بالمهــام التى كلفوا بهــا ، وهم اذ يتحمــلون مسئولياتهم تلك تصــغر فى أعينهم متع العيش ومغــرياته ، وتتضاءل مغانمه ومسراته ، على حين تعظم فى عيونهم وأفئدتهم حقيقة الايمان بالمثل العليا ، وتشد عزائمهم ارادة الاصلاح • ويستتبع ضآلة أطايب الحياة ومناعمها لديهم هوان الالآم التى يتكبدونها والتضحيات التى يبذلونها فى سبيل استبدال الذى هو خير بالذى هو أدنى • فنراهم ينكرون ذواتهم ، ويتفانون فى أعمالهم المجيدة ، يحثهم الايمان الصادق العميق بما بعثوا له ، ويحفزهم الهدف البعيد الى مزيد من البذل والعطاء ولو أدى بهم الامر الى الاستشهاد • فلا سبيل لقوة عليهم مهما علت الا قوة الحق ، ولا مرد لهم عن مواصلة الطريق الا أن يشاء الله • فالارادةالقوية والصلابة هى سمات الايمان الحق ، ومن ثم سلاح النصر •

ولكم سجل تاريخ البشرية أعظم الصفحات وأخلدها فى سير القادة والابطال • كيف حملوا المشعل وتقدموا به الصفوف ، حين لم تكن ثمة شعاعة من أمل تومض أو بارقة من يقين تبدو •

كيف واجهوا المشكلات المعقدة واستهانوا بما يصيبهم من بأساء فى سبيل الخروج من هذه الظلمات المتراكب بعضها فوق بعض ، وكيف حققوا انتصارهم فى أشق الظروف وتحت أشد الضغوط المادية والمعنوية ، وما وهنوا ولا استكانوا ، وانما زادهم ايمانهم صلابة وجلدا ، وارتفعوا الى مستوى المسئوليات التى قبلوا احتمالها فى رضى عميق ويقين لا يتزعزع ، مثلهم فى ذلك كالجوهر الاصيل لا يغيره اللهب بل يزيده صقلا ولمعانا .

فالايمان القوى بالهدف هو القوة الروحية التى تقف وراء أعظم الاعمال . انه بمثابة الروح التى تتجسد فيها رسالة الداعى ، ولا بقاء للجسد بغير الروح ، فهى أصل الحياة وجوهرها ، ولا صلاح للجسد بغير صلاح الروح . وانما ينجح الداعية فى أداء ما التزم به اذا أشربت روحه رسالته ، وصدعت بها فى غير ضعف ولا استكانة . والداعى بطبيعة هذه الرسالة يتصدى لمعتقدات موروثة مقدسة فيحاربها ، ويحاول بكل ما أوتى من قوة أن يقوض أركانها الراسخة ليقيم على أنقاضها بناء جديدا من المعتقدات . فهو يواجه الجماهير ويعالج المواقف خطيبا ومتحدثا ومفاوضا ، ومن ثم يستعين بالاسلوب الدبلوماسى فى تحقيق غايته .

ان السياسى يحدد الهدف ويرسم الخطة التى تضمن له

بلوغ هذا الهدف • والدبلوماسى هو السفير الذى يوفده هذا السياسى لينفذ تلك الخطة بما يحقق الغرض منها فى مواجهة دولة أخرى • وقد يقوم السياسى نفسه بتنفيذ الخطة اذا آنس فى نفسه القدرة على ذلك ، وقد ينجح فى المجال الدبلوماسى ، اذا كان رجلا دبلوماسيا بطبيعته تتفق فيه الصفات اللازمة لهذا العمل ، أو اكتسب من التجارب والخبرات فى هذا الميدان ما يؤهله لخـــدمته •

وفى كلتا الحالين ــ سواء أكان واضع الخطة هو منفذها أم كان منفذها غيره ــ فان الايمان بالهدف هو القوة التى تقف وراء نجـــاح التنفيـــذ • وهو صـــفة مشتركة بين الساســـة والدبلوماسيين طالمـــا كانوا من أصحاب المبادىء ، لا يختلفون فى جوهره ، وانما تختلف الاساليب عندما يصدعون بالدعوة بحسب طبيعة كل منهم وما يلتزم به من عمل • وكلهم قائد فى معركته مؤمن برسالته • ولكن طبيعة المعركة هى التى تحدد طريقة العمل • ففى السلم يمارس الدبلوماسى مهمته ، فاذا لم يحقق بغيته بالوسائل الودية ونشبت الحرب ، انتهى دور الدبلوماسى وحان دور القائد المقاتل • وقد تتخلل الحرب هدنة أو صلح مؤقت ، وهنا يعود الدبلوماسى الى الظهور •

ولذلك فان ايمان القائد صلب لا هوادة فيه يحققه بسلاح

الحرب البناء ، فيمضى بسيفه لا يلوى على شىء ، أما ايمان الدبلوماسى فهو ايمان خفى غير جهير • فهو دفين فى الصدر ، وقد يشك الخصم فى وجوده أحيانا ، اذا اقتضى الهدف الكبير التنازل مؤقتا عن بعض المصالح والتضحية بها •

ومن هنا كان الايمان بالهدف مقوما أساسيا من مقومات السفير فى الاسلام بالنظر الى دوره الكبير فى تحقيق أهداف دولته ، ولما تتطلبه طبيعة مهمته من بذل أكبر الجهود لتحقيقها ، وما قد تقتضيه من تضحية قد تصل الى بذل النفس فى سبيل الهدف الاسمى • وانا لنجد مصداق ذلك فى تاريخ سفراء الرسول صلى الله عليه وسلم الى القبائل والامم المجاورة ودعوتها الى الاسلام • لقد كان الايمان هو سلاحهم وكان سر عظمتهم المنبثقة من مبادىء الاسلام ، تلك العظمة المتمثلة فى انتصار القوة الروحية على القوى المادية • وكان كل منهم يدرك أنه صاحب رسالة بناءة ، وانه يخوض معركة ترتهن نتيجتها بمدى ايمانه وارادته وتضحيته •

كان سفراء النبى عليه السلام يدركون أنه متى آمن السفير بما أوفد من أجله ، وانعقدت عزيمته على المضى فى طريقه مهما كلفه ذلك من عناء ، كان النصر له حليفا • وأولى آيات النصر انعكاس ايمانه القوى على من يتصدى له هيبة وجلالا •

فالاقوى ايمانا فى أية مصاولة أو منافسة أو حوار هو الاقدر والاكفأ ، وهو الاقرب الى بلوغ مأربه • وصراع الارادتين يسفر لا مفر عن انتصار أقواهما ، ولا ريب فى أن المؤمن الحق هو الاقوى باذن الله • وقد نهج كثير من سفراء الدولة الاسلامية فى عصورها المختلفة نهج سفراء رسول الله ، فكانوا مثلا عالية وشهودا عدولا على سمو دينهم ودولتهم • كانوا عنوانا للحق والقوة ، وكتب الله لهم بذلك الفلاح فى مسعاهم •

المبحث الثانى

الفصـــاحة والعلم

وحسن الخلق

لا ريب فى أن قوة التعبير وسلامة المنطق من أهم المقومات التى ينبغى أن يتصف بها السفير فى الاسلام • فهما أداته فى تبليغ رسالته على أحسن وجه ، واذا لم تستقم الاداة فسد العمل • ومن المعروف أن وسيلة السفير فى أداء وظيفته هى الاتصال الشخصى والمناقشة والحوار والدخول فى المفاوضات والتعاهد والتعاقد ، وكلها أساليب لا يحسنها الا المتحـدث الكفء والخطيب المفوه القادر على التعبير عن أفكاره وحسن عرضـها •

فالبلاغة من أوجب الصفات اللازمة لاصحاب الرسالات • فهى التى تفتح النفوس المغلقة ، وتنفذ الى الاذهان السادرة ، وتسرى فى الاسماع ، فتؤلف القلوب الجامحة ، وتظفر بالثقة فى الدعوة وصاحبها • ومن ثم ، لا يكفى أن يكون السفير ملما بواجباته واعيا لمسئولياته ملتزما بها ، بل ينبغى — حتى ينجح

فى مسعاه — أن يوفق فى عرضها على الآخرين وفى اقناعهم بما يدعوهم اليه . وبلاغة القول وقوة العارضة هما السبيل الموصل الى ذلك . وكم من امرىء صادق فى دعوته مخلص فى جهده ، لم يدركه التوفيق لعجزه عن الافصاح والاقناع .

ومن ثم يشترط فى السفير أن يكون فصيح اللسان بليغ اللغة ، قادرا على اختيار الظروف المناسبة لتوصيل أفكاره . فمن آيات البلاغة أن يحسن السفير تحديد الوقت المناسب والمكان المناسب لدعوته لان لكل مقام مقالا . ومنها أن يحسن انتقاء الالفاظ والتراكيب المعبرة عن مقصده ، فلرب كلمة غير مستساغة أو موضوعة فى غير موضعها فوتت على الداعى غرضه . ذلك أن حسن القبول اشارة الى استعداد المتلقى للاستماع الى محدثه وبادرة الى الاقتناع به ، ولا يتأتى حسن القبول الا اذا عرف الداعى كيف ينفذ الى غرضه بأجمل أسلوب وأبلغ عبّارة مما يطلق عليه السهل الممتنع .

ولئن كانت الفصاحة وطلاقة اللسان والقدرة على التعبير المبين ، تستهوى الانسان على اختلاف الازمان والاوطان ، فهى عند العرب — وهم أهل الفصاحة والبلاغة — من أهم ملامح العبقرية فى الرجل . لذلك كان اشتراط الفصاحة والبلاغة فى السفير المسلم أمرا حتميا بحكم ضرورة تمثيله للسمات العربية

الاصــيلة وفى مقــدمتها هاتان الصفتان ، وغنى عن الــذكر ما تضــفيانه على صاحبهما من قوة شــخصية وأسر لدى المخاطبين • كما أننا لسنا بحاجة الى ذكر مدى احتفاء العرب ــ قبل الاسلام وبعده ــ ببلاغة القول حتى ليقول النبى صلى الله عليــه وسلم : « ان من الشــعر لحكمة وان من البيان لسحرا » • وللدلالة على هذا يكفى أن نذكر أن القرآن ــ وهو الكتاب المبين الذى أحكمت آياته ــ كان معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم ، اذ كان الشعر أعظم ما وهبه العرب فى زمانهم بين الامم قاطبــة •

وكما أن الاخلاص فى أداء المهمة دون قدرة على الافصاح لا يكفى للنجاح ، كذلك فان موهبة التعبير لا تكفى بذاتها سببا له مالم تساندها ســلامة المنطق وقوة الحجة • فالمطلوب فى السـفير أن يتوافر فيه أمــران : قوة المبنى وقوة المعنى ، ولا سبيل الى النجاح اذا لم تتكامل القوتان •

والارتباط واضح جلى بين قوة الحجج التى يسوقها السفير المفاوض وبين العلم وسعة المعرفة • ذلك أنه لا يتسنى للمرء أن يلهم الفكرة السديدة دونما سند من العلم الغزير ، فهو الرافد للخواطر النيرة والافكار الصائبة • والعلم هو السبيل الى وضوح الرؤية وتحديد الهدف وبيان خطوات العمــل •

وبالعلم تتفتح أمام المرء آفاق رحيبة ، وتتفجر طاقاته الخلاقة ، وتزول المغالق والسدود التى تقف حائلا بين الفرد وبين تطوير نفسه وتطويع مجتمعه وتطوير عالمه • والعلم هو مصدر القوة القادرة على اعادة تشكيل الانسان لتحقيق حياة أفضل ، فهو الذى يقوده الى معرفة الحقيقة والايمان بها وكشف الزيف والبطلان • وهو الذى يخلع على صاحبه احدى السمات القيادية البارزة فيصبح موضع التجلة والتقدير •

ومن هنا كان العلم مقوما رئيسيا فى السفير الاسلامى ، فلا رسالة بغير علم ، ولا نجاح دون عماد من المعرفة • والسفير الاسلامى انما يمثل دولة قامت عقيدتها على أساس من العلم ، عقيــدة جاءت لتطلق الفرد والمجتمع من اسار الشرك بالله والاضرار بالخلق ، ولتبدل ظلمات الناس وجهالاتهم نورا • عقيدة انبثقت منها دولة رسالتها الحضارة والتقدم فى سبيل رفع الظلم واقامة العدل وارساء مبادىء الحق والمساواة ، ودستورها نشر الثقافة الصحيحة والمعرفة الشاملة لتقويض الضلالات القديمة وخلق واقع جديد للمجتمع يسير فى هداه حتى يبلغ غايته الســامية فى توحيد أفراده وضمان الخير والرفاهية لهم وللعالم أجمع •

ان السفير الاسلامى هو مبعوث دولة كان القرآن كتاب

الله الذى حوى من العــلم كل شىء آية مؤسسا ومعجزته الخالدة . دولة ثار دينها على الجهالة ، ومجد العلم والعلماء ، وحث على التماس الحكمة فى مصادرها بشتى الوسائل ، ووزن قيمة المرء بعلمه ورجاحة فكره ، وجعل طلب العــلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وجعل من بيوت الله المقدسة مدارس للتعليم ، وجعل العلماء فى المرتبة الاولى بين أقوامهم ، قال الله تعــالى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانســـان من علق . اقرأ وربك الاكرم . الذى علم بالقلم . علم الانســـان ما لم يعلم .. » .

وقوله تعالى :

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

« وقل رب زدنى علما » .

« وما يعقلها الا العالمون » .

« انما يخشى الله من عباده العلماء » .

« فلولا نفر من كل فرقة منهــم طائفة ، ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » •

وقال نبى الحق ومعلم الانسانية صلى الله عليه وسلم :

« يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة » •

« العلماء ورثة الانبياء » •

« يشفع يوم القيــامة ثلاثة : الانبيــاء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء » •

فلا غرو أن كان السفراء المسلمون يختارون من بين العلماء الاجلاء ، نابهى الذكر ، واسعى المعرفة ، حتى يكونوا أهــلا للرسالة التى يحملون مسئولياتها ، رسالة الدولة الاسلامية التى كان العلم دعامة أساسية فى بنائها ، ورسالة العقيدة التى جعلت العلم بشئون الدين والدنيا منهاجها ومصباحها المنير •

ويتبين من استعراض أسماء السفراء الاعلام فى الاسلام وتاريخ حياتهم أن كلا منهم كان غزير العلم واسع الثقافة ، فجلهم كان جامعا للشريعة والسنن والاحكام والسير (التاريخ) أديبا رواية للشعر وما يتبع ذلك من جودة البيان وقوة اللسان وحكمــة الاوائل وأمثالها ، عالمــا بأصول فــرض الضرائب وتحصيلها وبالقواعد المــالية •

ولم يشترط المسلمون المـام السـفير بلغة الملك أو الحاكم المبعوث اليه ، لان العادة قد جرت على استخدام التراجمة فى هذا الشأن ، وان كان المماليك بعثوا الى المغول رسلا من جنسهم والعارفين بلغتهم • أما بالنسبة لاشتراط التخصص فقد جرت العادة فى القرنين السابع والثامن للهجرة أن يقوم بالسفارة من تخصص فى الغرض منها كأن يبعث أحد رجال الجيش بقصد المفاوضة فى عقد هدنة ، وأحد الفقهاء أو العلماء لتبادل المسائل العلمية أو بحث الشئون الفقهية •

فاذا لم يجد الخلفاء والسلاطين فى رجل واحد من يصلح لمهام السفارة من حيث توافر الشروط والمؤهلات اللازمة كونت السفارة من أكثر من شخص ، كأن يكون « أحـدهما صاحب سيف ، والآخر من أهل الشريعة • وقد تعزز بثالث من الكتاب ، فصاحب الشريعة يقرر ما يسوغ منها ويدفع ما لا يسوغ • وصاحب السيف يرتب مالا مضرة فيه على الملك ولا جنـده ولا حيف ولا مخاطرة • والكاتب يحفظ قوانين السياسة ورسوم المكاتبات وأدب المخاطبات » •

وغنى عن الذكر أن المسلمين كانوا يشترطون فى السفير الى جانب سعة العلم حسن الخلق ، فلا علم بغير خلق فى الاسلام ، بل ان العلم هو سبيل اكتساب الصفات الحميـدة والسلوك

القويم ، وهو وسيلة لغاية سامية هى خلق الشخصية السوية المؤمنة • والله تعالى قد كرم مبعوثه الكريم بقوله « وانك لعلى خلق عظيم » • لذلك ، كان من أهم مقومات السفير النزاهة والامانة والشرف والاستقامة • وحين كان الخلفــاء والحكام يبعثون أكثر من سفير فى مهمة تقتضى عدة تخصصات وخبرات كما تقدم ، كانوا يحرصون على أن يكونوا جميعا من المتأدبين بأدب الله تعالى فيما أدب رسله الكرام حيث يقول : « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » •وليس أدل على المنزلة العالية التى رفع المسلمون اليها السفراء من أنهم لم يكفهم اشتراط المقومات القيادية فى السفير بل اشترطوا أن يتخلق بأخلاق الرســل والانبياء ، اشارة الى سمو مهمته وجــلال قــدرها •

وفى مجال حسن الخلق ، كان العرب يشترطون فيمن يحمل الرسالة ويقوم بالسفارة ألا يكون ميالا للنساء حتى لا يستخرجن أسراره ، أو ممن يحب شرب النبيذ « فان كان شارب خمــر فليتركه فى ذلك الوقت بالكلية ، فان الخمر تفضح شاربها وتطلع على ما فى نفسه من الاسرار • فقد كان الحزمة من ملوك الفرس تحرم على الرسل شربها وتضرب عليهم الاعناق عند المخالفة »•

ومبالغة فى الحرص على توافر شرط حسن الخلق فى السفير

كان المسلمون يشترطون فيه أن يكون شريف الاصل ، نبيل المحتد ، وذلك حتى يكسب سفارته المهابة والجلال لان الاصل العريق سبيل للسلوك الحسن واقتفاء آثار الاجداد بتراثهم • ولا غرو فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » • على أن هذا الشرط قد انعدم بانتقال السلطة الى غير العرب لا سيما فى عصر المماليك •

المبحث الثالث

الصبر والحكمة

من المسلم به أن الصبر فى مقدمة القيم الروحية بحسبانه قوة عاقلة حكيمة ، تجنب صاحبها الشطط ، وتعينه على النجاح • وهو دليـــل العقل النـــاضج الذى يضع الامور فى مواضعها الصحيحة • والصبر لا يتناقض مع الطموح والاقدام ، فهو سبيل لادراك الغايات المنشودة منهما ، على حين أن الجموح أو الاندفاع يشكل عقبة فى طريقها لانه قوة ضالة تورد أحيانا موارد الزلل أو التهلكة لصـــدورها عن أهواء النفس الامارة بالسوء المسيطرة على العقل والمنطق • والحكماء يدرجون الصبر فى عداد الفضائل ، ويعدونه مظهرا لســـلامة القوى النفسية ، وآية على الثقة بالنفس والصمود والتضحية فى سبيل الهدف • أما الملل فهو دليل على اختلال التوازن ، وضعف الثقة بالنفس ، وافتقـــاد القـــدرة على التضحية ، وهو طريق الى اليـــأس والاستسلام وما الى ذلك من أسباب الرذائل •

كذلك ، فان الصبر دليل قاطع على سعة الافق ، وبعد النظر ،

والرضى بالواقع مؤقتا ريثما تسنح الفرصة لتغييره • فهو سـلاح يفل قوى البغى حينمـا يكون من الطيش تحـديها ومواجهتها بالعنف • فلا يملك العـاقل الا أن يلوذ بالحكمة وضبط النفس والترقب والتأهب ، مع العمل فى الوقت نفسه على اعداد القوة للوثوب على القوى الغادرة والقضاء عليها متى أتيحت الظروف الملائمة ، وآنس المرء فى نفسه القدرة على صد تلك القوى ودحرها •

ويتبين ذلك اذا ما عرضت للناس شدة من الشدائد • فأما من يملك منهم الاتزان والسيطرة على النفس فهو القدير على الجلد والمقاومة حتى تنجلى الغمة • وأما من يفتقد هذه الصفات فهو العاجز عن مغالبة المحن ، الضعيف فى مجابهة الاحداث ، يستوى فى ذلك الافراد والجماعات ، والامم والشعوب ، اذا أصابها مكروه كاشتباكها فى حرب مع العدو أو نزلت بساحتها كارثة من الكوارث العامة كالآفات أو الاوبئـة وغير ذلك من المواطن التى تدعو الضعفاء الى الفزع والجزع •

لذلك ، كان الصبر من سمات المؤمن الحق لانه دليل حسن الظن بالله والثقة به ، وكان من أعظم مناقب الانبياء والمصلحين والقادة والابطال •

ولقد ورد ذكر الصبر فى كثير من آيات الله البينات دلالة على أنه فضيلة أساسية فى السلام :

« واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون » •

« فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » •

« ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور » •

« والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصــابرين فى البأساء والضراء وحين البأس » •

« وبشر الصابرين » •

وليس أدل على المنزلة الخاصة التى أفردها الله للصبر بين مكارم الاخلاق التى يجب أن يتحلى بها المسلم من أن المشرع الحكيم قرن الصبر بالصلاة فى أكثر من آية :

« يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة • ان الله مع الصابرين » •

كما قرنه بالحق فى قوله تعالى :

« وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » •

وفى قوله تعالى :

« وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمـا صبروا » •

دلالة على أن الصبر وسيلة لبلوغ منزلة الامامة والقيادة فى الناس ، وأنهم حين يبلغون هذه المنزلة يهدون الناس بهداية الله ، ويدعون لهم لمعرفة وجود الله ، والعمل بشرعه ، فهم أئمة صالحون ، لا دعاة سوء ، ولا دعاة فجور • فالصابرون قادة ، وقادة الى الحق والى الله • وبيان ذلك أن أكبر معانى الصبر المقصود ضبط النفس عن الشهوات واحتمال المصاعب فى سبيل الهدف • فاذا تمكن الشخص من قمع شهواته ، فصار مسلطا عليها ، لا مسلطة عليه ، قوى عزمه ، واشتدت ارادته ، وصفت روحه ، فاستنارت بصيرته ، وصحت فراسته ، ومال للعلم ، فتحقق له بذلك وسيلة المعرفة •

واذا راض المرء مزاجه على احتمال المصاعب ، وأراد نفسه على استساغة الحلو والمر من الخلائق والاشياء ، قويت نفسه فصارت قادرة على الاقتحام ، بينما لا تنال من صلابتها الهزائم • واذا اجتمع لاى انسان كمال المعرفة ، وكمال القدرة ، فقد تحقق له الشرط الوحيد ، ولا شرط سواه ، لبلوغ منصب القيادة الهادية الى الله ، المنزهة عن شوائب الجور والانحراف•

ويتبين من المفهوم الذى أوضحناه للصبر ، ومن تحليل معناه ، أنه شرط لا غنى عنه للسفير فى الاسلام ، لان الصبر آية على قوة التحمل ، والسيطرة على الاهواء ، والثقة ، وكلها من المقومات الاساسية لشخصية السفير ، ولان الصبر دليل على الايمان الحق وهو سمة السفير المسلم • والصبر نقيض الغضب ، ولا يتصور أن ينجح السفير فى مهمته اذا عجز عن امتلاك نفسه لان هذا العجز يتنافى مع طبيعة الرسالة التى يضطلع بها السفير لما تقتضيه من سعة الصدر والتريث ، والتأنى فى معالجة الامور ، فلا يطمعه مغنم عاجل فيلهيه عن الهدف المنشود ، ولا يستثير غضبه مغرم حال فيقطع عليه غرضه • لا تهجم ولا تعجل وانما وضع للامور فى ميزانها ، وترويض للنفس لتنصرف عن اللحظة الخادعة الراهنة الى اللحظة المناسبة التى يقتضيها الغرض ويحددها الموقف •

ان الحلم سيد الاخلاق ، وهو عدة الدبلوماسى فى مهمته الصعبة ، فالمتعجل يتحكم فيه الانفعال الطارىء ، فينأى به عن غايته ، وتخدعه نفسه فتورده موارد الانزلاق . أما المتأنى المقلب للأمور النـاظر الى العواقب فهو يحكم اللحظة وهى لا تحكمه . وصدق رسول الله قدوة السفراء المسلمين صلى الله عليه وسلم :

« ليس الشديد بالصرعة ، انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » .

والسفير شخصية قيادية ، ومن ثم تتوافر فيها القدرة على ضبط النفس ، واستيفاء ضياء العقل عندهجوم عناصر الاستفزاز والاثارة عى النفس ، والتصرف الملائم فى المواقف المثيرة اتقاء للخسـائر .

فاذا ذكرنا الحكمـة — كمقوم من مقـومات السـفير فى الاسلام — لم تعد دائرة المعانى التى تدور فى فلك الصبر . ذلك لانه نقيض الخفة والنزق والطيش وكلها نقائض الحكمة . واذا حللنا العناصر التى تتألف منها الحكمة تبينا أنها صفات ضرورية للسـفير النـاجح ، فمنها التعقل والرزانة والروية

والكياسة والمرونة وما الى ذلك من المعانى التى تنم عن نفاذ البصيرة وسعة الافق والقدرة على التمييز السليم والتخطيط المحكم الذى يضع فى اعتباره احتمالات المستقبل •

المبحث الرابع

ســـعة الحيلة

ان الذكاء وسعة الحيلة من أهم المواهب التى بدونها لا يمكن للسفير الوفاء بمسـئوليات مهمته الكبيرة البـالغة الحساسية لتعلقها بأهداف بلاده ومصالحها العليا ٠ ويتبين أهمية توافر هذه الموهبة اذا لاحظنا فى مجال العلاقات الدولية — أن ما يدور من حوار بين السفراء المفوضين لابرام صلح أو عقد محالفة أو معاهدة بين دولهم ، وما يعرض من مقترحات لحل المشاكل القائمة ، يتطلب مقدرة فذة على مقارعة الحجة بالحجة ٠ هنالك يحرص كل سفير على نجاح مسعاه ، وعدم التسليم بمطالب الجانب الآخــر مع الحرص فى الوقت ذاته على اســتمرار المفاوضات ، الامر الذى يستلزم حنكة وبراعة وســعة حيلة تحقق الغرض وتقى من العثرات ٠

ويصف العرب الرجل الفطن بالحول القلب ٠ بمعنى القادر على تقليب الامور على أوجهها المختلفة واحتيال الحيل لاصابة الهدف وادراك النوايا الخفية التى يبيتها الخصم والحذر من

المزالق واتقاء العواقب السيئة • ومثل هذا الرجل الفطن يأخذ دائما فى يده زمام المبادرة بحكم يقظته وذكائه وعلمه ، وهو سريع البديهة فى مواجهة ما قد يعــرض له من مفاجآت غير متوقعة ، قادر على الحركة فى كل اتجاه دون قيد نفسى وفكرى يحول بينه وبين اتخــاذ الخطوة الثابتة الواثقة فى الاتجـــاه الصحيح •

ومن مظاهر سعة الحيلة التى ينبغى توافرها فى السفير أن يحسن اعداد متطلبات الهــدف الذى يسعى لتحقيقه بعد أن يحدد هذا الهدف تحديدا دقيقا ، وأن يجيد وضع الخطة اللازمة للتنفيذ ، وأن يحسن اختيار الاوقات والاماكن ، وأن يرسم خطة مضادة لخطة الجانب الآخر ، وأن يرســم خطة بديلة يســتخدمها اذا فشلت الخطة الموضوعة ، ويعــد لتنفيذها الاسلوب الملائم لطبيعتها والتدبير الكفيل بنجاحها •

ومن سمات السفير الذكى أن يكون كتوما لاسراره ، حريصا على اخفاء خطته حتى لا يكشفها الخصم ، مداورا ، مناورا فيما لا يعدو دائرة الخلق القويم ، عاملا على جمع أكبر قدر من المعلومات عن الابعاد المختلفة لشخصية منافســه كطريقة تفكيره ومسلكه ودوافعه النفسية والقوى التى تؤثر فيه ويؤثر

فيهـــا وأقرب السبل الى الوصول الى قلبه وفكره • وبذلك يستطيع السفير أن يتنبأ بأى اتجاه جديد فى سير المفاوضات ، فيعد العدة سلفا لتحويله الى صالح القضية التى ندب للدفاع عنهـــا •

المبحث الخامس

رواء المظهـــر

كان العرب يحرصون على اختيار سفرائهم من بين الشخصيات التى تتوافر فيها الصفات الشكلية الحميدة الى جانب المقومات العقلية والمناقب النفسية التى سبق أن بيناها • واستمر هذا التقليد سائرا فى ظل الدولة الاســلامية ، مما قد يدعو الى التساؤل عن العلة فى ذلك برغم ما قد يبدو من مخالفته للمبادىء والروح الاسلامية التى تجعل المخبر لا المظهر أساسا لتقييم الانسان • فالاســلام لا يقيم وزنا لوســامة الوجوه وبهاء الملامح ، ولا يحفــل باختلاف الاشــكال والالوان لانه دين الجوهر لا المنظر ، فلا فرق بين الابيض والاسود والاحمــر والله تعالى يقول : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » • والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « كلكم لآدم وآدم من تراب » • ويقول : « رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لابره » • ويقول : « ان الله لا ينظر الى صوركم وأعمالكم ولكن ينظر الى القلوب التى فى الصــدور »•

والواقع أنه لا تناقض بين مبادىء السلام العليا فى المساواة بين الناس وبين اشتراط الحاكم بعض المقومات الخاصة فيمن يختاره للسفارة ، لان الامر هنا لا يتعلق بالحقوق أو الواجبات التى يسوى الاسلام فيها بين الناس ولا بالموازين التى يقاس بها المرء ، ولكنه يتعلق بالاوضاع الوظيفية ومقتضياتها وبالقاعدة الادارية التى تقول بضرورة وضع كل امرىء فى المكان الذى تؤهله له طبيعته وصفاته ومؤهلاته أو ما يعبر عنه فى الاصطلاح الحديث بوضع الرجل المناسب فى المكان المناسب . وهذه القواعد لا تتنافى مع مبادىء الاسلام طالما روعيت العدالة فى تطبيقها . بل انها تتفق مع أصول الحكم والادارة فى الاسلام وتستند الى المبدأ الاسلامى القائل : كل ميسر لما خلق له والى المبدأ التشريعى الاساسى القائل : لا ضرر ولا ضرار .

واذا كان الحاكم الاسلامى يزن السفير الاجنبى الموفد لديه وفقا لمقوماته الفكرية والخلقية ولا يحفل كثيرا بوسامته ، فان ملوك الدول الاخرى ورؤسائها قد يعنون بالمظهر الخارجى ويتأثرون به . على أن الحضارة الاسلامية فى العصر العباسى والعصر الاندلسى كانت تستوعب الشكل والمضمون معا بمعنى التقدم الفكرى فى شتى مناحيه ومنها الاوضاع الشكلية كما يظهر

ذلك فى الـــزى والعمـــارة وغير ذلك مما يتجلى فيه التـــرف والرفاهيـــة ٠

والواقع أن الخصائص العقلية والصفات الخلقية لا تكفى وحدها ولا تكفل بذاتها نجاح السفير فى مهمته ، مما يرجع الى طبيعة الســـفارة وأغـــراضها بوصفها وظيفة رســـمية تعنى بالشكليات المتعارف عليها والمراسيم النابعة من العرف الدولى والتقاليـــد الســـائدة ٠ كذلك ، فان أهمية الشـــكل فى عالم الدبلوماسية ترجع الى ماله من تأثير فى الموضـــوع « فأعين الملوك تسبق الى ذوى الرواء من الرسل » كما جاء فى بعض مأثورات العرب التى سنوردها فى الفصل القادم ٠ ومن الثابت فى النظريات الحديثة أن الشكل هو اطار الموضوع الذى يحدد أبعاده ، أو هو الوعاء الذى يحتوى المضمون ويصوغه فى قالبه ويخلع عليه لونه وطابعه ٠

لذلك ، كان الخلفاء والحكام المسلمون يولون عناية كبيرة بمظهر سفرائهم بحسبانهم عنوان دولتهم وما بلغته من مكانة وحضارة ٠ فكان حسن الدواء وبهاء الطلعة والقيافة وحسن الهندام شروطا ينبغى توافرها فى السفير ٠

ومن أخبار السفراء المسلمين الذين عرفوا بالوسامة وبهاء

الطلعة والرواء فى المظهر والزى أن نصر بن الازهر — وكان رســول الخليفة العبــاسى المتوكل الى ميخائيــل بن تيوفيل أمبراطور الروم سنة ٢٤٥ هـ — ٨٦٠ م ، وصل فى أبهى زينة متشحا بالملابس السوداء ، وهى الزى الرسمى للعباسيين ، وعلى رأسه قلنسوة ، متمنطقا سيفا وخنجرا • فأبى القائم بأمور الامبراطور ادخاله عليه بهذه الهيئة ، ولكن السفير حرص على تقــاليد دولته الدبلوماسية ، ودخل على الامبراطور ، وجلس فى مكان قرب سريره الكبير بملابسه الكاملة •

ومن أشهر الســفراء المسلمين فيما اتصــفوا به من رواء المظهر ، ســفير عبد الرحمن الثانى خليفة الاندلس الى ملك النورمان سنة ٢٣١ هـ — ٨٤٥ م الملقب بالغــزال نسبة الى جماله الظاهر ، وكان شاعر الخليفة ، أديبا مشهورا بين أدباء عصره • وقد أثبت لدى قيامه بمهمته من ضروب النشاط واجادة فنون الرياضة واللباقة وسعة العلم ما أثار اعجاب النورمان وملكهم وملكتهم « نود » التى أعجبت بدعاباته معها وتغزله فى شبابها وجمالها •

ومن طريف ما يروى فيما جرت عليه تقاليد الملوك الاعاجم من اشتراط الوسامة والقسامة وبهاء الطلعة فى السفير ، وعدم اشتراط بعض الحكام العرب هذا المظهر الشكلى طالمــا كان

من يندبونه كفئا لمهمته من حيث الملكات العقلية والخلقية وخاصة اذا كان مجال الاختيار ضيقا نتيجة ظروف خاصة — من طريف ما يروى فى هذا الشأن كما جاء فى كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر القاهرة لمؤلفه جمال الدين بن تغرى بردى الاتابكى ٨١٣ — ٨٧٤ ه فى تاريخه فتح العــرب لمصر أنه لمــا حاصر المسلمون حصن بابليون وكان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤسائهم وعليهم المقوقس ، خرج هؤلاء من باب الحصن القبلى وتركوا به جماعة يقاتلون العرب • ثم أرسل المقوقس الى عمرو قائد الجيش الاسلامى رسالة يفاوضه فى الصلح ، فوافق عمرو بن العاص ، وبعث عشرة نفر من جنوده أحدهم عبادة بن الصامت ، وكان طوله عشرة أشــبار ، وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم • وكان عبادة أسود ، فلما دخل على المقوقس هابه الاخير لسواده وقال المقوقس : نحوا عنى هذا الاسود وقدموا غيره يكلمنى ، فقالوا جميعا : ان هذا الاسود أفضلنا رأيا وعلما وهو سيدنا وخيرنا والمقــدم علينا ، وانما نرجع جميعا الى قوله ورأيه ، وقد أمره الامير دوننا بما أمره وأمرنا الا نخالف رأيه وقوله •

فقال : وكيف رضيتم أن يكون هذا الاسود أفضلكم وانما ينبغى أن يكون هو دونكم ؟ قالوا : كلا وانه وان كان أسود

كما ترى ، فانه من أفضلنا موضعا وأفضلنا سابقة وعقلا ورأيا وليس ينكر السواد فينا • فقال المقوقس لعبادة : تقدم يا أسود وكلمنى برفق فاننى أهاب سوادك ، وان اشـــتد كلامك على ازددت لك هيبة ، فتقدم اليه عبادة •

فلما سمع المقوقس مقالة عبادة بن الصامت قال لمن حوله : هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ! لقد هبت منظره ، وان قوله لاهيب عندى من منظره ، ان هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الارض وما أظن ملكهم الا سيغلب على الارض كلها •

ثم دار الحوار بين الرجلين ، وأصر عبادة ـــ بمنطق الفارس المقدام ولغة العربى الاصيل ـــ على ألا يجيب المقوقس الى شىء دعاه اليه الا احدى الخصال الثلاث التى أوصاه بها عمرو : الدخول فى الاسلام أو الجزية أو الحرب • وأذعن المقوقس لمـــا أراد المسلمون الفاتحون غير أن أصحابه لم يطيعوه ، فاستؤنفت الحرب وكتب النصر لجند الحق •

ويستدل من هذه الواقعة على أن بهاء الطلعة لا يشترط فى السفير المسلم فى جميع الاحوال ، فربما لا يقتضيه المقام • بل ان العكس قد يكون أوفى الغرض • فقد كان من شأن منظر

عبادة المهيب — بالاضافة الى ما وهب من خصائص الجندى الشـــجاع — أن نجح فى بغيته وهى ارهاب خصـــمه حتى يستسلم • ولعل عمرو بن العاص — بما وهب من دهاء لا يدانيه فيه غيره من الساسة والقواد — أن يكون قد أدرك ذلك حين اختار عبادة بن الصامت دون غيره سفيرا عنه فى المفاوضـــة بينه وبين المقوقس •

الفصل الرابع

اختيار السفراء ووصايا الحكماء

المبحث الأول

أساليب اختيار السفراء واختبارهم

على الرغم من عدم تنظيم دراسات تدريبية للسفراء في العصور الاسلامية ، كما هو الشأن في العصور الحديثة ، فقد كان المرشحون للاعمال الدبلوماسية يختارون وفق أدق القواعد التى لاتختلف الا قليلا عن النظم التى تتبعها الدول في عالم اليوم عند انتقاء سـفرائها ، ضمانا لاختيار أصلح العناصر للقيام بما يوكل اليهم من مهام دقيقة وجليلة . والمعروف أن الدول الحديثة تتبع أسلوبين في اختيار الممثلين الدبلوماسيين:

أما الاسلوب الاول ، فهو اختيار المبرزين الاولين فيمسابقات علمية عامة ، يجرونها بعد اختبار دقيق للمرشح ، وتحر عميق عن ماضيه ، وتتبع لاحواله وصفاته ومسلكه . اذ تكشف هذه المسابقاتعادة عن مبلغ فهم المرشح وثقافته ومدى أهليته للاضطلاع برسالته . وفى أغلب الاحوال يكون هذا الاسلوب خاصا بانتقاء الدبلوماسيين المبتدئين .

وأما الاسلوب الثانى فهو اختيار من عرف بالكفاية واتسم

برجاحة العقل وقوة البصيرة وسعة الحيلة ، ليكون رسولا أو سفيرا دون امتحان يجرى أو مسابقة تعقد .

وقد اتبع المسلمون نفس هذين الاسلوبين مع تعديل يسير فى الاسلوب الاول ، اذ كان الخلفاء يقومون بأنفسهم باختيار المرشحين للسفارة . وكان فى الدولة الاسلامية فى صدرها الاول ديوان يسمى ديوان الرسائل يختص بالمكاتبات مع الملوك وغيرهم من رؤساء الدول المجاورة . وكان كتاب الرسائل فى العصر الاموى والعباسى يقومون بالتمهيد لاختيار السفراء واعداد الكتب التى يحملونها .

ولقد حفلت المصنفات العربية القديمة بأمثلة لتلك الاختبارات الطريفة التى كان يحرص الخلفاء على اجرائها بأنفسهم . ومن ذلك ماحدث لاحد المرشحين للسفارة الى بلاد الروم لتمثيل الخلافة الاموية ، وهو عامر بن شراحيل الشعبى . فقد كان هذا المرشح من فقهاء الكوفة وعلمائها ، وحجة فى تاريخ العرب قبل الاسلام وأنسابهم وأشعارهم . ووقع عليه اختيار الحجاج ابن يوسف الثقفى والى العراق اذ ذاك ، ليبعث به الى الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان ، الذى أراد أن يوفده سفيرا الى البلاط البيزنطى .

وعندما قابل الشعبى الخليفة جرى الاختبار التالى :

ـ قال الخليفة : يا شعبى ، ما العلم ؟

ـ فقال الشعبى : هو ما يقربك من الجنة ، ويباعدك عن النـــار .

ـ قال الخليفة : يا شعبى ، ما العقل ؟

ـ فقال : ما يعرفك عواقب رشدك ، ومواقع غيك .

ـ قال الخليفة : متى يعرف الرجل كمال عقله ؟

ـ فقال : اذا كان حافظا للسانه ، مداريا لاهل زمانه ، مقبلا على شأنه .

ـ ثم قال الخليفة عبد الملك : يا شعبى ، أنشدنى أحكم ما قالته العرب وأوجزه .

ـ فقال الشعبى : يا أمير المؤمنين ، قول زهير :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفــره ، ومن لا يتق الشتم يشتم !

وقول النابغة :

ولســت بمســـــتبق أخــا لا تلمــة
على شعث ، أى الرجال المهــذب !

وقول عدى بن زيد :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينـــه
فكل قـــرين بالمقـــارن يقتـــدى

وقول طرفة :

ســتبدى لك الايام ما كنت جاهــلا
ويأتيــك بالاخبـــار من لـــم تزود

وقول للحطيئة :

من يفعل الخير لا يعـــدم جوازيه
لا يذهب العــرف بين الله والنـــاس

وانتقل الخليفة عبد الملك بن مروان بعد ذلك الى اختبـــار الشعبى اختبارا أشبه باختبارات الذكاء اليوم ، فنجح أيما نجاح ، وأثبت قدرة على ضبط النفس ، وسرعة الخاطر ، ومقدرة على اجتياز المأزق ، وعلما غزيرا •

ولقد جرت العادة على ارسال من يقع عليهم الاختيـــار للسفارة فى مهام محلية بسيطة ، لاختبار مدى ما عندهم من مواهب • وفى بعض الاحيان كان يخفق المرشح للسفارة فى هذا الاختبار • وعبر أحد الشعراء عن هذا الاخفاق بقوله :

وكنت اذا بعثت به رسـولا يدانى قبل أن يمضى بيأس
وأنسانى وما وجهت فيـه على أنى ذكور غـير ناس
ويرجع ـلارعانى الله فيهـ الى بخيبة بعد احتبـاس
يرد برأسه أبـدا جـوابى أرانيـه الاله بغـير راس

ونستدل من هذا على أنه كان هناك ما يشبه تدريب المرشحين لاعمال السفارات الاسلامية ، يتم قبل تقلدهم مناصبهم وارسالهم الى خارج البلاد .

المبحث الثاني

وصايا الحكماء فى اختيار السفراء

تحفل الكتب العربية بمأثورات الحكماء قبل الاسلام وبعده فيما يشترط أن يتحلى به السفير من مناقب ، ووصاياهم الى الملوك والامراء والحكام والقادة بشأن من يصلح للسفارة • كما تحفل هذه الكتب أيضا بنصائح الحكام والخلفاء الى سفرائهم الدبلوماسيين قبل سفرهم للاضطلاع بالمهام الموكلين بها ليكونوا خير ممثلين لهم ، وليرتفعوا الى مستوى المسئولية المنوطة بهم •

وتدور هذه الوصايا والنصائح والحكم حول ما يجب أن يتحلى به السفير من كياسة وذكاء ، وحصافة رأى ، وبلاغة قول ، ورجاحة عقل ، وسرعة بديهة وحسن تصرف ، واحتيال للحيل ، وتقليب للامور ، الى غير ذلك من الخلال والمناقب التى سبق أن شرحناها ، والتى من شأنها اذا توافرت فى السفير أن تجعل منه أفضل عنوان وأبلغ لسان لدولته •

ولعل من أشهر ما عبر به الحكماء عما يستحب فى السفير

من صفات تلك القولة المأثورة لمعاوية بن أبى سفيان أول خلفاء بنى أمية وأدهى الحكام العرب :

« لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، اذا أرخوها شددتها ، وان شدوها أرخيتها » .

ففى هذا التعبير المجازى عن تصريف الشئون العامة للدولة وسياسة الحكم ، فى اتصالها بالافراد والقبائل والامصار فى الداخل ، أو بتنفيذها فى علاقاتها الدولية فى الخارج ، يقدم لنا معاوية تعريفا لما اشتهر به من مرونة ومهارة دبلوماسية فى لقاء خصومه وكسب أعوانه وتنفيذ سياسته فى الداخل والخارج. وينم هذا التعريف عن أصالة الفهم لما يجب أن يتصف به فن السفارة من خصائص أبرزها : الاتصال بالواقع، وعدم الانعزال عن الناس ، ومعالجة الامور باللين والحزم ، والاخذ والعطاء ، والصبر والذكاء والروية والاناة . كما أن تشبيه العلاقات السياسية بالشعرة ، هو بلوغ الغاية فى روعة التصوير لما تكون عليه هذه العلاقات من دقة وحساسية تتطلب معالجتها مهارة خاصة ، هى ما نعرفه بالفن الدبلوماسى .

وقد روى الواقدى أن قريشا فى الجاهلية كانت اذا أرسلت رسولا الى بعض الملوك قالت له :

« احفظ شيئا : انتهز الفريصة ، فانها خلسة ، وبت عند رأس الامر لاذنبه ، واياك وشفيعا مهينا فانه أضعف وسيلة ، واياك والعجز فانه أوطأ مركب ، عليك بالصبر فانه سبب الظفر، ولا تعرف الغمر حتى تعرف القدر » .

ومن أبلغ ما كتب فى صفات من يصلح للسفارة ما جاء فى كتاب رسل الملوك لابن الفراء على لسان أحد الحكماء :

« اختر لرسالتك ، فى هدنتك وصلحك ومهماتك ومناظرتك ، والنيابة عنك ، رجلا حصيفا ، حولا قلبا ، قليل الغفلة ، منتهز الفرصة ، ذا رأى جزل ، وقول فصل ، ولسان سليط وقلب حديد ، فطنا للطائف التدبير ، ومستقبلا لما ترجو أن تحاول بالحزامة واصابة الرأى ، ومتعقبا له بالحذر والتمييز ، ساميا الى ما يستدعيه اليك ويستدفعه عنك ، حاضر الفصاحة ، مبتدر العبارة ، ظاهر الطلاقة ، وثابا على الحجج ، مبرما لما نقض خصمك ، ناقضا لما ابرم ، يحيل الباطل فى شخص الحق، والحق فى شخص الباطل .. عالما بأحوال الخراج والحسابات وسائر الاعمال .. وليكن من أهل الشرف والبيوتات ، فانه لابد مقتف آثار أوليته ، محب لمناقبها مساو لاصله منها » ..

ويعدد ابن الفراء ما ينبغى أن يتصف به السفير من نزاهة

عن بيع الامانة أو خيانة مرسله ، وحذر من تجاوز ما رسم له أو تغيير شيء من رسالة من اختبر ثقته أو من أرسل اليـــه . يعدد تلك الصفات فى عبارة أخرى فيقول :

« ان السفارة تقتضى حسن أخلاق السفير كأن يكون عفيفا نزيها ، أمينا لا أمين عليه ، بحيث لا يقبل الرشا (جمع رشوة) ، ولا يستدره العطاء ، فيقصر فيما يحب لصاحبه ، ويبالغ فيما لا ينبغى لمن أرسل اليه ، وأن يكون جيد اللسان لا تبدر منـــه البذية ، كاظما للغيظ لا تلحقه ثورة الغضب ، يؤثر الصدق فى القول ، محتالا فى محاورته ومكائده ، يناظر كلا بحسب مايراه من صوابه وخطئه ، وأن يكون وقورا ذا حزامة ، حليما ذا أصالة رأى ، جريئا لا يرتاع لتهديدات مرهبة ، ولا يتغير بأطماع مرغبة ، بل يضع الامور فى مواضعها ، ويقابل كل فعل بما يليق بـــه » .

كما جاء بكتاب رسل الملوك لابن الفراء على لسان رســـول المعتصم قوله لملك الروم :

« ان للخلفاء خدما يتصرفون فى أنحاء الخدم ، لكل طائفة مذهب يجتبون له ويحتملون عليه ، ولا يكلفون سواه ، ولايراد منهم غيره ، فمنهم من يعد للفتوح فهو يلبس السلاح ويقود

الجيوش ، ومنهم من يعد للقضاء فهو ييبس المبردات والدنيات ، ومنهم مثلى من يصلح أن توفده الخلفاء للملوك ، ويتحمل رسائلم الى مثلك من أهل الجلالة والقدر والسناء والذكر • فلولا ثقتهم بى ، وعلمهم بمناصحتى وصدقى فيما أورد وأؤدى صادرا وواردا ، لما رأونى أهلا للتوجه فيما توجهت فيه اليك ، وقليل لمثلى هذا الرزق مع هذا التحمل وهذا المحل من الخلافة، وهى من الجلالة على ما هى » •

ويقول البحترى فى وصف الرسول :

وكأن الذكاء يبعث منه　　فى سواد الامور شعلة نار

ويقول الآخر :

وابعث رسولا فى ملاطفة　　قد أحكمت أحكامه الحيل

ويقول آخر :

أكرم رسولى فانه اذن　　تسمع عنى ومقلة تنظر

ومن الابيات المشهورة :

اذا كنت فى حاجة مرسلا　　فأرسل حكيما ولا توصه

ومنهـــا :

الالمعى الذى يظن بك الظن كأن قــد رأى وقد ســمعا

ومن جوامع الكلم فيما يجمل أن يكون عليه السفير الموفــد لاداء رسالته من صحة فى الجسم ، وقيافة وحسن هندام ، وحسن فى النطق ، وسلامة فى الاداء ، قولهم أنه يستحب فى الرسول : « تمام القد وعبالة الجسم ، حتى لا يكون قميئا ولا ضئيلا .. فأعين الملوك تسبق الى ذوى الرواء من الرسل . يمــلأ العيون المتشوفة اليه فلا تقتحمه ، ويشرف على تلك الخلق المتصوبة له فلا تستصغره . « صحيح الفكرة والمزاج ذا بيان وعبارة ، بصيرا بمخارج الكلام ووجوهه ، صــدوق اللهجــة » . وقد أوصى الوزير السلجوقى نظــام الملك فى مؤلفه « سياسة ناما » أى فن الحكم ، أن يكون الســفير « مسنا عالما » . كما قال ان « نبالة السفير تكون سببا فى علو قدره وما يلقاه من اكبار واجلال وترحيب » .

تلك هى خلاصة المناقب والسجايا التى كان يشترطها رؤساء الدولة الاسلامية ــ كما جاء فى المؤلفات العربية ــ عند اختيار مبعوثيهم لدى الدول الاخرى ، تقديرا لجلال المهام التى كانوا

يوفدون من أجلها وأثرها البالغ فى سلامة الدولة واستقرار أحوالها الخارجية وانعكاس ذلك على شئونها الداخلية •

ويدل تاريخ السفراء فى الاسلام على أنهم كانوا صفوة أبناء مجتمعهم علما وخلقا وخبرة ، اذ كانوا يختارون من بين الشخصيات البارزة فى الدولة ذات المنزلة العامرة والمشهورة بالعلم والخلق مما يجعلهم أهلا لما يعهد به الخلفاء والسلاطين اليهم من أمور السفارة ومفاوضة الملوك ووزرائهم • من ذلك أن الخلفاء المسلمين قد عهدوا بالسفارة الى القضاة والفقهاء كالشعبى رسول عبد الملك بن مروان الى الروم ، والمحدثين كالزينبى ، والعلماء كيحيى بن الربيع ، والمتصوفة كالسهروردى رسول الخليفة الناصر ، وكبار موظفى الدولة كالوزراء والكتاب ، والاطباء كعبيد بن نصر ، وكبار التجار كالسلامى رسول السلطان الناصر محمود لعقد الصلح مع أبى سعيد ملك المغول •

وفى مجال المقارنة بين سفراء العرب والمسلمين وبين سفراء أوربا فى العصر الوسيط فيما كان يشترط فيهم من صفات مميزة تتكافأ مع سمو رسالتهم ، نجد أن الامر عند الغربيين لم يجر على النهج الذى ترسمه المسلمون • فلم تجر العادة منذ البداية على اختيار ملوك أوربا وأمرائها لسفرائهم من بين

النبلاء أو أبناء الاسر المعروفة • بل كان منصب السفارة لا يلقى حفاوة أو ترحيبا من قبل أبناء هذه الطبقة ، لما كان يفرضه على من يتولاه من تكاليف مالية وشروط فى العمل ورقابة فى تصرفاته ، فضلا عن ابتعاده عن مسقط رأسه وحرمانه من المشاركة فى السياسة الداخلية لوطنه • ولهذا كانت السفارة تفرض على بعضهم قسرا فى البندقية ، وتوقع الغرامات المالية على من يرفض منهم قبولها ، كما جاء بمرسوم سنة ١٢٧١ م •

وأشارت الى ذلك تعليمات مماثلة صدرت عن حكومة فلورنس سنة ١٤٢١ م بتوقيع العقوبات الجنائية واسقاط الحقوق المدنية عمن يرفض القيام بالسفارة • حتى اذا جاء القرن السادس عشر أشار جيسباردينى فى كتاباته الى تهرب نبلاء فلورنس من قبول مهمة السفارة ، ومن ثم اضطرت حكومة فلورنس أن تختار سفراءها من بين كتاب الدولة وموظفيها المدنيين أمثال نيقولا ميكافيلى صاحب كتاب « الامير » والذى تنسب اليه السياسة القائمة على الانتهازية اذ كان شعاره : الغاية تبرر الواسطة أى الوسيلة •

ويرجع السبب فى ذلك الى أن أوربا كانت تنظر الى السفراء بوصفهم محترفين يقومون بتمثيل بلاط بعد بلاط ، ويخدمون كل فترة من الزمان أحد الملوك ، حيث لم يكن عنصر المواطنة أساسا

فى اشتراط من يقوم بمهام السفارة ، على أن هذه النظرة قد تغيرت فيما بعد حين تقدمت الدبلوماسية فى أوربا ونظمت أساليبها واستقرت تقاليدها .

أما السفارة عند العرب فلم تكن احترافا بقصد الحصول على مغانم ، بل كانت شرفا يتسابق اليه كبار الشخصيات ، ورسالة يتنافسون فى أدائها مهما كلفهم الامر من تضحيات ، اذ كانت تقترن فى نفوسهم برفعة الدولة الاسلامية ونشر العقيدة الدينية . ولم تكن مقصورة على طبقة دون أخرى ، وانما هى حق وواجب فى الوقت ذاته لمن تتوافر فيهم الصفات التى تؤهلهم لهذه الرسالة أيا كانت فئتهم وطالما توافر فيهم عنصر المواطنة « الجنسية » التى كانت تقوم على الدين .

فلا غرو أن يحرز السفراء المسلمون نجاحا فى مهامهم ، وأن يسهموا فى توطيد دعائم الدول الاسلامية التى كانوا يمثلونها ، وبسط نفوذها ، وتحقيق أهدافها السياسية والاقتصادية والفكرية .

الفصل الخامس

مُحَمَّدٌ سَفِيرُ السَّمَاءِ وَقُدْوَةُ السُّفَرَاءِ

جاء الاسلام فكان ثورة عقائدية تحررية كبرى تستهدف ربط الارض برسالة السماء ، رسالة التوحيد والحق والعدالة، من طريق الدعوة الى تقويض القديم الفاسد واقامة جديد صالح ينهض على أساس تحرير العقل البشرى من الخرافات والاباطيل ، وتحرير النفس من نزعات الشر وشهوات الحس ونزعات الهوى ، وتحرير المجتمع — على المستويين القومى والدولى — من التخلف ومن التفرقة بألوانها المختلفة ومن استغلال القوى للضعيف . وقد تناولت هذه الثورة شئون الدين والدنيا فأقامت نظاما للحكم القويم ونظمت بالعدل الامور السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وعنيت بالسفارات الدبلوماسية كوسيلة للاتصال بين الناس ، فاستخدمتها فى تحقيق أهدافها الروحية ومبادئها الانسانية العالمية ، وجعلت منها أداة لدعم الوحدة السياسية العربية وتأسيس الدولة الاسلامية وتثبيتها وابلاغ الرسالة المحمدية الى العالمين ، وخرجت بها الى ميادين أرحب وأفسح فى العلاقات الدولية.

وقد سبق أن أوضحنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم

قد اتخذ من السفارات الدبلوماسية أسلوبا لنشر دعوة الحق وسبيلا الى تأليف القلوب ، ودستورا فى معاملاته وعلاقاته العامة فى الجزيرة العربية ومع الامم والشعوب المجاورة بقصد التمكين للدعوة ، وأنه — عليه السلام — قد وضع الاصول الثابتة والقواعد المحددة لمنهاج السفارات فترسمها خلفاؤه من بعده •

كما أوضحنا أن الدبلوماسية الاسلامية فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام تتجلى فيما سطر من كتب وأوفد من بعوث الى القبائل العربية والى ملوك الدول المجاورة ورؤسائها لدعوتهم الى الاسلام ، ومن ذلك مراسلاته الى كسرى ملك الفرس، وهرقل ملك الروم، والنجاشى ملك الحبشة، والمقوقس عظيم القبط فى مصر . كما تتجلى هذه الدبلوماسية فيما نظمه عليه السلام من اجتماعات عامة ومؤتمرات ، وما عقده من معاهدات ومواثيق فى السلم والحرب للمحالفة أو الهدنة وفداء الاسرى أو تبادل المعونة وتحقيق المصالح المشتركة •

ومن ثم يمكن القول استنادا الى طبيعة الدعوة الاسلامية والى وقائع التاريخ المسجلة والى المفهوم العلمى للدبلوماسية — ان محمدا رسول الله هو مؤسس الدبلوماسية الاسلامية والقدوة الحسنة للسفراء المسلمين • وبالرغم من هذه الحقائق

البينـــة فاننا نجد أن المصـــادر الاجنبية المختلفـــة فى النظم الدبلوماسية قد أهملت دراسة تاريخ الدبلوماسية الاسلامية ونشاطها ، فلم تتناولها بأكثر من الاشارات العابرة ، ولم تحلل أهدافها وتقاليدها ومراحل تطورها •

بطلان دعوى المفترين

ويرجع هذا الاهمال — فى رأينا — الى ما ردده بعـــض المغرضين وأعداء الاسلام فى كتاباتهم من أن الاسلام دين حرب وقتال •ولمـــا كان الاسلوب الدبلوماسى القـــائم على علاقات الود والسلام هو البديل لاسلوب الحرب ، فقد أغفل هؤلاء المفترون — عمدا — الـــدور الرائد الذى قامـــت به الدبلوماسية الاسلامية والصفحات المشرقة التى ســـــجلها الرسول صلى الله عليه وسلم وسفراء المسلمين من بعـــده فى سبيل نشر الرسالة الخالدة ودعم دولتها بالاسلوب السلمى • وزعموا أن الدولة الاسلامية الاولى قامت على السيف ، فلم يكن للدبلوماسية دور يذكر فى بث دعوتها وتوسيع رقعتها •

ويكفى للرد على دعوى أولئك المبطلين أن نستشهد بما كتبه كثير من علماء الغرب المنصفين ، وأثبتوا فيه — بما يدحـــض مزاعم المضللين — أن الدعوة الاسلامية قد استقرت لانها عقيدة

الحق ورسالة السلام ، ولم يكن القتال سبب نجاحها واستقرارها •

فالاسلام — كما تقدم — دعوة الى السلام ، والحرب فيه مشروطة بقصد حماية العقيدة والدفاع عن النفس • أما فى غير حالات الجهاد فى سبيل الله ذودا عن الدين أو منعا لظلم ، أو اتقاء لفتنة ، أو اعلان الحرب لكفالة حرية العقيدة وسلامة الوطن ، أو غير ذلك من حالات الحرب المشروعة فى القانون الدولى — فى غير تلك الحالات ، حض الاسلام على نشر العقيدة بالطرق الودية أى بالاسلوب الدبلوماسى •

وثمة وهم يخامر آخرين عن مقصد حسن ، ولكنه ينم عن جهل بطبيعة الاسلام وغاياته ووسائله • ونعنى به مخالفة الدبلوماسية — حين نعرض لها فى حياة الرسول وأعماله — لاخلاق النبوة وما خصها الله به من قداسة •

رد على الواهمين

أما الرد على أولئك الواهمين من أصحاب النوايا الطيبة ، فهو أن المفهوم الحقيقى للدبلوماسية لا يتعارض مع فهم رسالة الاسلام على وجهها الصحيح ، بل انه من صميم تلك الرسالة

العالمية • ومن ثم لا يتنافى مع قداسة النبوة بل هو من جوهر مناقبها •

ولعل مرد هذه الشبهة ماتوهمه بعض هؤلاء من أن الدبلوماسية هى السلوك الذى يتسم بالمكر والختل والمراوغة وما الى ذلك من الاخلاق الميكيافيلية • والواقع أن هذا تفسير خاطىء لمدلول الكلمة نجم عن استعمال هذه الصفات كمترادفات للدهاء والكياسة وحسن التدبير وهى المعانى الحقيقية للكلمة • ولا يستغرب أن تكون الدبلوماسية فى المصطلح الحديث من صفات الرسول ، فمحمد النبى الكريم هو محمد الانسان العظيم رجلا وداعيا وقائدا واداريا وسياسيا ودبلوماسيا •

ولقد كان محمد قمة فى السياسة لا يشاركه رجل آخر فى ذروتها ، فلا عجب أن يكون أعظم الرواد والمعلمين فى فن الدبلوماسية الحميدة ، ذلك أن السياسة هى رسم الخطط التى تكفل تحقيق أهداف الدولة الخارجية ، أما الدبلوماسية فهى الممارسة العملية لتنفيذ هذه الخطط عن طريق المراسلات والسفارات والاجتماعات وغيرها من الطرق الدبلوماسية ، وكان عليه السلام يضع تلك الخطط ويتولى تنفيذها •

ان الدين الاسلامى هو الشريعة السماوية التى أنزلت للبشر كافة • ومحمد عليه السلام هو خاتم النبيين • « يأيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيــا الى الله باذنه وسراجا منيرا » • فالاسلام دين وهو دولة أيضا • « كنتم خير أمة أخرجت للناس » •

ونبى الاسلام صلى الله عليه وسلم هو امام المصلحين ، وهو مؤسس الدولة الاسلامية الاولى فى المدينة ، والدبلوماسية من وسائل الحاكم فى اقامة دولته ، وهى أداة المصلح فى نشر رسالته ، يتذرع بها لفتح القلوب الموصدة وتهيئة الاذهان المضللة للاقتناع بدعوته •

والكلمة الطيبة هى سبيل الدبلوماسى الحصيف فى انجــاز ما يعهد اليه من أعمال ومهام ، وهى نقطة الانطلاق لانشــاء علاقات انسانية سامية كما ينبغى أن تكون عليه فى دعــوة الاسلام • قال تعالى :

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة • ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم • وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم » •

وقال تعالى :

« فبمـــا رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

وفى مقام الدعوة والاعلام تتبين أهمية الدبلوماســية فى كسب الاعوان ولقاء الخصوم . ومن المعارك ما يكتب فيها النصر للقائد الملهم بسلاح الدبلوماسية دون أن تسفك قطرة من دم .

وتتميز أقوال النبى وأفعاله فى نشر الدعوة وتوطيد أركان الدولة الاسلامية بأعظم ما تسجله صفحات التاريخ من صفات الدبلوماسى الكامل ، فهى أخذ وعطاء بالحق ، وهى لين فى غير ضعف وحزم فى غير تزمت ، وهى ذكاء وروية وأناة وما الى ذلك مما يجب أن يتحلى به الدبلوماسى الناجح .

أن محمدا عظيم لانه على خلق عظيم كما وصفه الله تعالى « وانك لعلى خلق عظيم » ، وهو قدوة المقتدين فى المناقب السامية والسجايا الكريمة .

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » .

ولقد بعث محمد بن عبد الله ليكون رسولا للعالمين . وقد خصه الله بابلاغ هذه الرسالة للناس جميعا ، فهيأه بالفطرة

لها ، فلا غنى لصاحب الدعوة عن التحلى بالصفات الاصيلة التى يتم بها أداء رسالته ، وما من دولة قامت الا كانـــت الدبلوماسية فى مقدمة الاساليب القويمة التى انتهجتها لتحقيق غاياتها . وللدبلوماسية الدور الاول فى نجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ واكمالها على خير الوجوه . والدعــوة الاسلامية أعظم دعوة فى تاريخ البشر ، وهى رسالة ضخمة متعددة الاجزاء ، فلم يكن ثمة بد من أن تتوافر لصاحبها أكمل صفات السفير الدبلوماسى حتى تكون كفـــاء لها فى العظمة والضخامة .

ومثلما تطلبت البشرية ظهور الدعوة الاسلامية ومهــدت الحوادث لنجاحها ، فقد تهيأت شخصية محمد وصفاته للجهر بهذه الدعوة ، وكانت الدبلوماسية الحكيمة أحدى هذه الصفات التى وافقت طبيعة الدعوة كما كانت من أسباب نجاحها .

لقد تهيأت أعظم المناقب الدبلوماسية لاعظم انسان ، بحكم الرسالة العظمى التى جاء ليبلغها للناس ، وأعدته لها طبيعته ونشأته ورسالته .

المبحث الأول

مناقب سفير السماء

دبلوماسى بالمولد :

ان محمدا الرسول الكريم هو حفيد عبد المطلب الدبلوماسى الحكيم ، ويرجع نسبه الى اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام. وقد عرف عبد المطلب فى قومه بسلوكه الدبلوماسى القويم ، اذ كان دمث الطبع حكيما راجح العقل مهيب السمت ، ظاهر الوقار ، فصيح اللسان ، قوى الحجة ، وقد أهلته مكارم أخلاقه لبلوغه منزلة سامية بين العرب فى مكة ، ومن مآثر دبلوماسيته كما جاء فى كتب السيرة ما نسب اليه من تصرف لبق ينم عن سرعة الخاطر وحسن التدبير وقوة الايمان بوطنه . ويشهد بما فطر عليه وما هدته اليه تجاربه من انتهاج الاسلوب الدبلوماسى فى تصريف الامور واتقاء الفواجع والازمات دون الالتجاء الى العنف .

وقد وقع ذلك فى حادثة الفيل التى ورد ذكرها فى القرآن

الكريم • فقد شيد القائد الحبشى أبرهة الاشرم — وكان ملكا على اليمن — كنيسة ضخمة فى العاصمة صنعاء ، وكان ذلك يوافق عام ميلاد الرسول ، لجعلها مركزا دينيا وتجاريا للناس بدلا من الكعبة • وسار على رأس جيشه الى الكعبة لـدك بنيانها ، وعسكر بجنوده على بعد ثلاث مراحل من مكة ، وأرسل رسله الى أهلها : أن اسلموا قيادكم • وسطا بعـض جنود أبرهة على ابل عبد المطلب • فلما سأله عبد المطلب أن يرد اليه ابله أجابه ملك اليمن متخابثا مداورا بالكلام : « أراك تسأل عن ابلك ولا تسأل عن الكعبة » • فقال شيخ بنى هاشم: « أما الابل فأنا ربها ، وأما البيت فله رب يحميه » •

فلا عجب أن ينجب هـذا الدبلوماسى الحصيف محمـدا سفير السماء ورسول الانسانية العظيم ، وأن يكون محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أقدر السياسيين وأمام الدبلوماسيين المسلمين •

دبلوماسى بالنشأة والتجربة :

نشأ الرسول فى بيت عبد المطلب وهو من صميم قبيلـة قريش ، وكانت لقريش الصدارة بين القبائل العربية • فلا عجب أن يتولى صفوة رجالها ما تتطلبه علاقاتها العامة من وسائل

دبلوماسية فى أوقات الحرب والسلم معا ، فأتيح للرسول بحكم نشأته فى تلك البيئة أن يشارك بنصيب فى بعض الاعمال الدبلوماسية . من ذلك ما روى عنه عليه السلام من أنه اشترك فى الحلف الذى كان يعرف بحلف الفضول ، وقد قام للمطالبة بحق الضعفاء والمحرومين فى مكة ، فكان على كل عضو فى الحلف يرتبط برباط الشرف ، أن يرد عن الضعفاء أية صورة من صور العسف والجور . والى بنى هاشم — أسرة النبى — يرجع الفضل فى تأسيس هذا الحلف وانقاذه ، مما يشهد بنزعتها الانسانية المتأصلة وقدرتها على العمل الدبلوماسى .

وقد تأيدت دبلوماسية النشأة بدبلوماسية التجربة ، فقد مارس محمد التجارة — وهى المناخ الصالح لتنمية موهبة الاخذ والرد بين الناس بالحسنى — منذ الخامسة والعشرين من عمره ، وخرج غير مرة للاسفار ، فقام برحلتين الى بلاد الشام متجرا فى أموال خديجة بنت خويلد رضى الله عنها . وكانت حصيلة تلك الاسفار تجارب كثيرة فى فهم الناس والحياة مما لا غنى عنه لرجل أعدته السماء لاشرف رسالة ، وأمدته بمعين عذب يستقى منه خبراته التى يستبين بها معالم الطريق ويستعين بها فى ميادين السياسة والدبلوماسية على السواء .

ولم تكن هذه الخبرات لتؤتى ثمارها لو لم يودعها الله نفسا طاهرة المنبت صافية المنبع تفيد من الاحداث وتستوعب التجارب وتتعظ بالعبر ، نفسا لا تدانيها أخرى فى مناقبها الفضلى التى هيأتها لتلك الرسالة الروحية فى مكة .. فى المدينة .. فى الجزيرة .. وفى العالم أجمع . ومن ملامح تلك النفس الوضاءة ما اتصفت به من فطنة وحدة ذكاء وحسن تصرف فى مواجهة المشكلات ومن قدرة على الوصول الى الحلول الناجعة فى الخلافات المحتدمة . وآية ذلك موقفه عليه السلام — قبل البعثة — حين احتكم اليه لفض ما نشب من نزاع بين عشائر قريش على وضع الحجر الاسود المقدس فى مكانه من الكعبة .

وحديث ذلك أن أهل مكة قد أجمعوا سنة ٦٠٥ ميلادية على هدم الكعبة واقامتها على أساسها القديم بعد أن تصدع بنيانها ولم يجد فيها اصلاح . فاقتسمت قريش جوانب البيت الاربعة وخصص لكل عشيرة قسم تبنيه . وبدأ القرشيون البناء فى حماسة دافقة تضرمها حمى المنافسة حتى بلغ البنيان موضع الركن حيث يوضع الحجر الإسود فى الجانب الشرقى من الكعبة . وهنا ثار الجدل واحتدم الخلاف : من يضع الحجر الاسود ؟ من الاجدر بنيل هذا الشرف الجليل ؟ .. وكاد النزاع أن يتحول الى حرب أهلية ، وأعد القوم للقتال وقربت بنو عبد الدار حفنة مملوءة دما ، ثم تحالفوا هم وبنو عدى بن

كعب على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم عازمين على وضع الحجر دون غيرهم من العشائر أو الموت .

ومضت على ذلك أربعـــة أيام ، وقريش يتهدد بعضـــها البعض وقد ادلهمت نذر الشر وأمارات الوعيد ، وكادت الفتنة أن تشتعل فتسفك الدماء ، لولا أن قال لهم أبو أمية بن المغيرة المخزومى وكان أسنهم :

« يا معشر قريش اجعلوا الحكم بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل باب هذا المسجد » .

وما لبث المتخاصمون — وقد أخذوا فى النهاية بهذا الرأى — حتى رأوا شابا فى نحو الثلاثين مقبـــلا ، فلما عرفوه قالوا : هذا الامين ، رضينا بحكمه ، هذا محمد . فلما انتهى اليهم ، وقصوا عليه الخبر لم يأخذ فى الاصغاء الى لجاجهم ومهاتراتهم فيما بينهم ، وانما فكر قليلا ثم قال : « هلم الى ثوبا » . فأتى به فنشره على الارض وأخذ الحجر الاســـود بين يديه ووضعه على الثوب ثم قال : « ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب » . فلما أجابوه الى ما طلب قال لهم : « ارفعوا جميعا » ففعلوا حتى اذا بلغوا بالحجر موضعه من بناء الكعبة تناوله محمد من الثوب ووضعه فى موضعه .

وهكذا حسم الامر ، وحقنت الدماء ، وقضى على الفتنة فى منبتها بفضل بديهة محمد الحاضرة وحكمته الراجحة ودبلوماسيته القديرة ، فقد أرضى المتنازعين جميعا دون أن يؤثر فريقا على آخر ، ووفق — لاول مرة فى تاريخ العرب — بين كبرياء رؤساء القبائل بتصرفه الحكيم وحيدته المطلقة ونزاهة قصده ، تلك الخلال الحميدة التى عرفت عنه عليه السلام قبل البعثة فكانت له مكانة سامية من نفوس قومه وتقدير رفيع لسمو نفسه وعظم مقـــداره •

دبلوماسى بطبيعة الرسالة :

لن يتاح لمصلح أن يهدى قومه ما لم تكتمل فيه مواهب الدبلوماسى وصفاته وأسلوبه فى لقـــاء الاشخاص ومواجهة الاحداث ، فكيف بمن يحمل أعظم رسالة الى الناس •

لقد خص الله نبيه ومبعوثه الى الخلق بأجل السجايا التى لو توافر بعضها فى رجل لكان رائدا حقا فى الميدان الدبلوماسى ، خصه بأكمل صفات الدبلوماسى القادر المحنك • فمن صفـــات الدبلوماسى الناجح — كما سبق أن بينا — أن يكون فصيحا فى لسانه بليغا فى لغته ، وقد اكتملت هذه الصفات فى محمـــد عليه السلام ، فكان فصيحا فى قوله ونطقه وموضوع حديثه ، كما قال عليه السلام : « أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد ابن بكر » •

ويقول كاتب الاسلام الكبير المرحوم الاستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه عبقرية محمد انه عليه الصلاة والسلام قد جمع الى فصاحة اللسان سلامة النطق وحسن الصوت ، فحديثه « جوامع الكلم » ، وفى ذلك تقول عائشة رضى الله عنهـا : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصـل يحفظه من جلس اليه » • فكلامه مرتب أجمل ترتيب ، ومنطقه أسلم منطق ، وأسلوبه فى الحديث كامل الاداء ، فليس يملك السامع الا الاصغاء اليه والاعجاب به • ولا عجب فى ذلك فقد كان عليه السلام أعرب العـرب •

وقريب من هذه الصفات التى اكتملت فى شخصية الرسول، صفة الوسامة التى عرف بها عليه السلام ، فكانت الى جانب فصاحته وبلاغته من أسـباب تأليف القلوب وشـغفها به ، فاجتمعت على محبته رغم اختلاف الطبائع والخصال • فقد كان صلى الله عليه وسلم منذ مولده وسـيما صبوح الوجه مشهودا له بالملامح الوضاءة والسمات النبيلة •

وقد رشحت الرسول عليه السـلام لاداء رسالته صـفة دبلوماسية أخرى تعد من ألزم الصفات التى ينبغى أن يتحلى بها الدبلوماسيون وهى القدرة على كسب الثقة ، فقد أحبه

الناس جميعا وشهد له بالفضل الانصار والمعارضون على السواء ، فكان عليه السلام قبل البعثة يلقب بالصادق الامين لا يختلف فى ذلك أحد ، ولا ينفس عليه هذه المناقب انسان •

وكانت تلك المناقب مجتمعة سبيلا الى اقناع العرب برسالة الاسلام وهدايتهم الى الدين الحق • وكان الرسول يدعو أهل مكة قائلا : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى » ؟ فيقولون : « نعم ، أنت عندنا غير متهم »

وهذه السمات والمناقب لم تكن لتؤتى ثمارها فى ابلاغ الدعوة وتحقيق رسالتها لو لم تصدر عن قلب عميق الايمان بما يدعو اليه ، ونفس قوية العزيمة صلبة الارادة ، لاتثنيها عن مرامها رغبة ، ولا تفل سلاحها رهبة ، تستعذب التضحية فى سبيل المبدأ ، وتجهر بالدعوة مهما لقيت فى سبيلها من اضطهاد •

وكلما عظمت الرسالة وتشعبت مناحيها ، وصعبت دروب تحقيقها ، اشتدت الحاجة الى التمسك بالصبر والتذرع بالحكمة • ولم يسع التاريخ رسالة أعظم من الدعوة الاسلامية ، ولا صبرا أعظم من صبر صاحبها ، ألهمه الله الصبر ليحقق رسالة الهدى فى العالمين ، وأوحى له أن يبث البر فى قلوب المؤمنين ، فكان قدوة لهم وكانوا هم مثلا صالحة للناس

جميعا . قال تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة »
وقال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

لقد ضرب النبى عليه السلام أعظم مثل للدبلوماسى الصبور الحكيم ، فلم يحمل النفس على انتهاج طريق العنف حين اضطهده المشركون ولقى أصحابه ما لقوا من عنت فكانوا يؤذون فى أنفسهم ودينهم بل لقد هاجروا من أرضهم ليتقوا شر أهل مكة .

أجل ، فمن الدبلوماسية ألا يحمل المسلمون سيوفهم ويعلنوا القتال وقاية لانفسهم وهم ما زالوا مئات أو ألوفا قليلة ، ذلك أنهم اذا استشهدوا فى حرب غير متكافئة فمن الذى يؤدى الرسالة ويواصل حملها ، فليهاجروا اذن بدينهم الجديد الى أرض جديدة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

ومن الدبلوماسية أن يخرج المسلمون بسيوفهم ليدفعوا المعتدين عن أرضهم ودينهم وقد تكاثروا وأنشأوا دولة عزيزة الجانب فى المدينة ، فاذا استشهد بعضهم ، فلهم أجر الشهادة ، وللأحياء من بعدهم أن يرفعوا اللواء ويمضوا فى سبيل الحق .

المبحث الثاني

شـــواهد وبينـــات

جاء الاســلام والجزيرة العربية غارقة فى دوامة عاتية من الظلم والظلام ، فلا حكومة مركزية تعزز جانب القانون والنظام فى البلاد ، ولا نظام سياسى يشكل مجتمعا متناســقا ويضم فى اطاره شعبا موحدا ، وانما قبائل متناحرة تتنازع منــاطق النفوذ ، وتؤلف كل منها وحدة سياسية منفصلة ومستقلة •

أما الدول الصغيرة القليلة المبعثرة هنا وهناك ، فكانت أضعف من أن تثبت القانون على قدميه • ولكى تنتزع قبيلة حقها من الاخرى كان عليها أن تلجأ الى قوة سواعد أبنائها ، ولكل قبيلة سيد من بينها يقودها فى عراكها ضد القبيلة المناوئة لاسترداد حقوقهــا •

ولم يكن هناك قانون يربط القبيلة بتلك الدويلة أو الاخرى التى كانت قائمة فى أطراف الجزيرة ، بل كانت كل منها مستقلة لا تدين بولاء أو طاعة الى أية سلطة مركزية • ولــكن ما ان

ظهر الاسلام وارتفعت أعلامه حتى ظهرت معه الوحدة القومية فألفت الشتات المتنافر فى أخاء للجميع .

ولم تكن هذه الوحدة القويمة لتقوم لها قائمة بغير قواعد راسخة من الخلق الدبلوماسى الذى فطر عليه الرسول والسلوك القويم الذى آثره به الله . قال تعالى :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

وقال الرسول عليه السلام :

« انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » .

ولقد أوتى الرسول ملكة الدبلوماسية فى أكرم مزاياها الذهنية وشمائلها النفسية ، فضلا عن عراقة النسب وصلاح الاسرة وثراء التجربة . فكان خبيرا بكل ما اختبره العرب من ضروب العيش فى البـــادية والحاضرة ، تربى فى الصحـــراء ، وألف المدينة ، واشتغل بالرعى والتجارة ، وشهد الحروب والاحلاف ، وعاشر السراة دون أن ينغمس فى بيئتهم ، وعايش الفقراء والمساكين دون أن يأنف منهم ، ألهمته السماء أسرار الغيب ولم يبتعد عن واقع الحياة .

وقد أتيح للنبى بما خصه الله به من فضائل وما أنزل عليه

من الوحى أن يسمو بالعواطف الانسانية فى علاقاته العـــامة الى ذروة لم ينلها أحد • وصدق رسول الله اذ يقول :

« أدبنى ربى فأحسن تأديبى » •

وقد رشحته هذه السجايا المثالية لينهض برسالته العظمى ويؤديها خير أداء ، كما أتيح له بحكم تجربته الاجتماعية فى غمار الحياة والناس والاحداث ، وحياة التفكير والتأمل التى عاشها فى غار حراء قبل نزول الوحى ، ناظرا فى الكون مجتليا للحقيقة من خلال هذا النظر ، أن يكون عالمـــا بنزعات النفوس ونزعاتها ، وفضائلها وسيئاتها ، على تعدد السمات والانمـــاط واختلاف الخلائق والاتجاهات • وهيأ له هذا أن يسبر أغوار النفس البشرية ، ويستطلع خفاياها ودخائلها ، ويضع يده على مكامن الداء وأساليب الوقاية والعـــلاج مما يتمـــيز به الدبلوماسى الحصيف •

لقـــد قلم أظفار البغى بسلوكه القويم ، وراض القـــلوب العصية بمنهجه العظيم • فلم يضع السيف فى موضع الندى ، ولم يضع الندى فى موضع السيف ، وانما اتخذ الموقف المناسب فى اللحظة المناسبة ، وخاطب كلا على قدر فهمه واحساسه ، وتلك أعلى مراتب الدبلوماسية •

وسوف نعرض فيما يلى نمـــاذج من العمل الدبلوماسى فى

السيرة النبوية قبيل الهجرة وبعدها ، مما يتمثل فى مفاوضاته عليه السلام ومعاهداته مع مختلف الفئات .

محالفة الاوس والخزرج :

من الشواهد البينات الوضاءة فى تاريخ سفير السماء ما أبرمه صلى الله عليه وسلم من معاهدات تحالف مع الاوس والخزرج قبل هجرته الى المدينة مما كان له أكبر الاثر فى نجاح خطة الهجرة وتحقيق أهدافها . فمن الحكمة التى بثها الله سبحانه فى قلب رسوله عليه السلام أن يمهد لهذا الحدث العظيم الذى يمثل مرحلة حاسمة فى تاريخ الاسلام ونقطة تحول جذرى فى تاريخ الانسانية جميعا ، بتأليف قلوب أهل الموطن الجديد المزمع اتخاذه مكانا للاقامة ومركز انطلاق للدعوة ، وذلك من طريق العمل الدبلوماسى المتمثل فى عقد معاهدة صداقة ودفاع معهم ، حتى اذا قدم بدينه اليهم وحل مع صحبه فى ديارهم ، طاب فيها مقامه وعز مسكنه ، وكان له من رجالها عوض عن الاهل ، ومن بقاعها بديل عن الوطن الام الذى أخرج عنه كرها ووجد فيها المناخ الملائم لدعوته ، والقلوب الصادقة المناصرة له ، وخاصة أنه لا مناص من خوض معارك مصيرية طاحنة مع كفار قريش الذين لن يسلموا باقامة المسلمين دولة لهم فى المدينة تناوئهم وتتهدد نظمهم السياسية واقتصادياتهم، الامر الذى يتطلب حشد كل الجهود وتعبئة كل القوى .

وهذه التدابير الدبلوماسية التى قام بها النبى صلى الله عليه وسلم فكانت تمهيدا خير تمهيد لتنفيذ الهجرة هى بيعة العقبة الاولى ، وبيعة العقبة الثانية ، وبيعة العقبة الثالثة .

(أ) بيعة العقبة الاولى :

كانت تقام فى مكة فى موسم الحج الاسواق المشهورة مثل سوق عكاظ ، وكان العرب يفدون على مكة من جميع أنحاء الجزيرة وتنزل كل قبيلة فى منزل بها خاص . وقد لقى رسول الله فى الموسم عند العقبة — وهى مكان مرتفع شرقى مكة على يسار الطريق للقاصد منى من مكة — ستة رجال من الانصار كلهم من الخزرج ، فدعاهم الى الاسلام . فكان من صنع الله لهم أنهم كانوا جيران اليهود، فكانوا يسمعونهم يذكرون أن الله تعالى يبعث نبيا قد أطل زمانه فقال بعضهم لبعض هذا والله الذى تهددكم به يهود ، فلا يسبقونا اليه ، فأسلموا به وبايعوه . وقال هؤلاء القوم — لمحمد رسول الله — ان كنا تركنا قومنا ، بيننا وبينهم حروب ، فننصرف وندعوهم الى ما دعوتنا اليه ، فعسى الله أن يجمعهم بك . فان اجتمعت كلمتهم عليك واتبعوك . فلا أحد أعز منك .

وانصرفوا الى المدينة ، فدعوا الى الاسلام ، حتى فشا

فيهم ، ولم تبق دار من دور الانصار الا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم •

(ب) بيعة العقبة الثانية :

وقد واعد النبى هؤلاء الرجال الستة الذين آمنوا برسول الله وبايعوه أن يقابلوه فى الموسم القادم فى نفس الموضع • فلما حل هذا الموسم جاء من المدينة اثنا عشر رجلا ، عشرة من قبيلة الخزرج منهم خمسة من الستة الذين بايعوا فى العقبة الاولى ، واثنــان من قبيلة الاوس • وقابلهم رســول الله ، وأسلموا جميعا ، وبايعوه على السمع والطاعة • وهذه هى بيعة العقبة الثانية أو الصغرى •

وكانت البيعة ألا يشرك أحــدهم بالله شــيئا ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتــل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ولا يعصيه فى معروف • فان وفى ذلك فله الجنة ، وان غشى من ذلكشيئا فأمره الى الله ان شاء عذب وان شاء غفر •

وواضح من هذه البيعة أنهم لم يبايعوا الرسول على القتال دفاعا عن الاسلام وانما على الدخول فى الاسلام ، ومن ثم سماها بعض كتاب السيرة بيعة النساء • فلما انصرفوا أنفذ

رسول الله معهم ابن أم مكتوم ، ومصعب بن عمير ، يعلم من أسلم منهم القـــرآن وشرائع الاسلام ، ويدعو من لم يسلم الى الاسلام • فأسلم على يد مصعب بن عمير خلق كثير من الانصار على رأسهم سعد بن معاذ سيد الاوس ، وأسيد بن حضير من زعمائها ، وأسلم باسلامهما جميع بنى عبد الاشهل فى يوم واحد ، الرجال والنساء ، لم يبق منهم أحد الا أسلم حاشا عمرو بن ثابت بن وقش ، فانه تأخر اسلامه الى يوم أحد فأسلم واستشهد • ولم يكن فى بنى عبد الاشهل منافق ولا منـــافقة ، كانوا كلهم حنفـــاء مخلصين ، رضى الله عنهم أجمعين • ولم يبق دار من دور الانصـــار الا وفيها مسلمون عدا قلة قليلة أسلموا فيما بعد •

وقد ازداد الاسلام بعد هذه البيعة انتشارا بيثرب • وأقام مصعب بين المسلمين من الاوس والخزرج يعلمهم دينهم • فلما أذنت الاشهر الحرم أن تعود قفل راجعا الى مكة وقص على رسول الله خبر المسلمين بالمدينة وما هم عليه من منعة وقوة ، وأنهم سيجيئون الى مكة موسم حج هذا العام الجديد أكثر عددا وأعظم بالله ايمانا ونصرا لامره ولكلمة الحق •

(جـ) بيعة العقبة الثالثة :

ثم سعى النبى الى بيعة ثالثة لا تقف عند الدعوة الى الاسلام على نحو ما ظل هو يدعو اليه ثلاث عشرة سنة متتابعة فى رفق وهوادة مع احتمال صنوف التضحية والالم جميعا ، وتكون حلفا يدفع به المسلمون عن أنفسهم العدوان بالعدوان • وقد دعاه الى التفكير فى ذلك ازدياد اتباعه فى يثرب فى بيعة العقبة الاولى انتشارا وقوة • فاتصل سرا بزعماء أهل المدينة القادمين للحج وعرف استعدادهم • ووفق رسول الله فى مسعاه اذ وفد على مكة فى موسم الحج جماعة من يثرب بلغت عدتهم ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين ، منهم أحد عشر من الاوس • فوعدهم النبى أن يقابلهم ليلا عند العقبـة ، وكتم مسلمو يثرب عن المشركين أمرهم ، وانتظروا حتى اذا مضى ثلث الليل من يوم موعدهم مع النبى خرجوا من رحالهم يتسللون مستخفين حذر أن ينكشف سرهم • فلما كانوا عند العقبـة تسلقوا الشعب — الطريق الجبلى — وتسلقت المرأتان معهم ، وأقاموا ينظرون مقدم صاحب الرسالة • وأقبل رسول الله ومعه عمه العباس ابن عبد المطلب ، وكان ما يزال على دين قومه • لكنه عرف من قبل من ابن أخيه أن فى الامر حلفا ، وان الامر قد يجر الى

حرب ،وذكر أنه قد تعاهد مع من تعاهد من بنى المطلب وبنى هاشم ان يمنعوا محمدا ، فليستوثق لابن أخيه ولقومه حتى لا تكون كارثة يصلى بنو هاشم وبنو المطلب نارها ، ثم لا يجدون من هؤلاء اليثربيين نصيرا • لذلك كان العباس أول من تكلم فقـــال :

« يا معشر الخزرج ، ان ابن أخى لم يزل فى منعـــة من قومه حيث لم يمكنوا منه أحدا ممن أظهر له العداوة والبغضاء، وتحملوا من ذلك أعظم الشدة ، وقد أبى الا الانحياز اليكم واللحاق بكم • وان كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه اليكم فمن الآن فدعوه بين عشيرته فانهم بمكان عظيم » •

فقام اليه البراء بن معرور سيد قومه وكبيرهم ، وكان قد أسلم بعد العقبة الاولى وقام بكل ما يفرض الاسلام ، وقال :

« والله لو كان فى أنفسنا ما ننطق به لقلناه • ولكن نريد الوفاء والصدق وبذل مهجنا دون رسول الله » •

واتجه الجمع بحديثه الى الرسول مستوضحين شروطه ، قائلين : « خذ لنفسك ولربك ما أحببت » • فقال :

« أشترط لربى أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئا ، ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبنـــاءكم متى قدمت عليكم » .

فقال له الهيثم : « يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال عهودا وانا قاطعوها . فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك أن ترجع الى قومك وتدعنا » . فابتسم الرســول وقطع العهد على نفسه قائلا :

« بل الدم الدم . والهدم الهدم ، وأنتم منى وأنا منكم ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » .

فبايعوه على ذلك قائلين : « بايعنا على السمع والطاعــة فى عسرنا ويسرنا ومكرهنا ، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » .

ويروى المؤرخون فى هذا الصدد أن البراء بن معرور كان أول من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبــة الثالثة ، وقد أخذ بيده عليه السلام ، ثم قال عقب قوله : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، قال : نعم والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما نمنع منه أزرنا — أى نساءنا — فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبنــاء

الحروب وأهل الحلقة ــ الدروع ــ ورثناها كابرا عن كابر .

وتمثل هذه المعاهدات الثلاث نموذجا رائعـــا للاحكام فى التدبير ومثالا عاليا للمفاوض المقتدر بما يتجلى فيها من ايمان مطلق بالقضية ، وحكمة بالغة فى اختيار الظروف الملائمة لعقد المعاهدة ، وشرف فى التعامل ، وأمانة فى العرض ، وعلم بطبائع الجانب الآخر ، وفصاحة وبلاغة فى القول ، وقدرة على كسب الثقة ، وسعة أفق ، مما يقدم أحسن القدوة للسفراء المسلمين. فأما الاحكام فى التدبير فانه يتمثل فى تحين الرســول عليه السلام الفرصة المناسبة لعقد المعاهدة حتى لا يستلفت اليه النظر ، فكان يختار موسم الحج ، وكان المتعاهدون يخرجون من مكة ــ حيث يغص الموسم بالجموع المتزاحمة فلا يرتاب فيهم مرتاب ــ الى بقعة بعيدة هادئة هى العقبة . كما كانوا يختارون الليل موعدا للقائهم مع رسول الله ، فيتسللون من رحالهم الواحد بعــد الآخر للتجمع فى المكان المحدد ، خلال ساعة من الليل محددة .

ومن تمام التدبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو الرجل ممن لم يكن قد أسلم منهم الى الاسلام ، متوخيا

أن يتم ذلك سرا ممن حضر من كفار قومه • وأما فهم الطبائع البشرية ، والتركيز على العوامل المؤثرة ، فيبدو فى بدء الرسول بدعوة سادة القوم بوصفهم يمثلون القيادة التى يحتذيها سائر الناس • فقد اختار فى بيعة العقبة الثالثة من المبايعين السبعين اثنى عشر نقيبا ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الاوس • والنقيب هو الامين والمصدق على طائفته ، المفتش على أسرارهم والعارف بطرق أمرهم ، المخاطب عنهم •

وجاء فى بعض كتب السيرة أن النبى عليه السلام قد اختار من المبايعين اثنى عشر رجلا قال لهم :

« أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومى » •

والكفالة هنا تؤدى معنى رقابة القائد أو الرئيس على أفراد الجماعة بقصد ضمان تنفيذ كل منهم التزاماته • فهى تتضمن مبدأ مسئولية الفرد عن الجماعة أمام من تعاقد معه • وحرص النبى عليه السلام فى هذه البيعة على موافقة رؤساء القوم على مبدأ الكفالة آية من آيات القدرة الدبلوماسية من حيث مواجهة احتمالات المستقبل واعداد العدة لها أو ما يعبر عنه فى المصطلح الحديث باتخاذ احتياطات الامن •

وأما الروية وسلامة البصيرة فتبدو فى مراعاة التدرج فى تنفيذ الهدف بمعنى انجازه على مراحل بحسب مقتضيات الحال ، ذلك لان الطفرة قد تؤدى الى الاخفاق فى الوصول الى الغرض المقصود • لهذا اقتصرت البيعة الاولى على دخول وفد اليثربيين فى الاسلام ، وكذلك كانت الثانية ، وأضيف اليها بعث مصعب بن عمير الى المدينة مع الوفد للدعوة فيها الى الاسلام • وقد أسلم على يده خلق كثير مما مهد للبيعة الثالثة التى تجاوزت الدخول فى الاسلام الى عقد حلف دفاعى بمعنى القتال مع النبى ضد مشركى مكة دفعا للعدوان بالعدوان •

المؤاخاة بين المسلمين

ومن أعظم الاعمال الدبلوماسية فى تاريخ البشرية قاطبة ما قام به الرسول عليه الصلاة والسلام من مؤاخاة بين طوائف المسلمين • ذلك أنه ترامت الاخبار الى يثرب بهجرة النبى وصاحبه أبى بكر ليلحقا أصحابهما الذين لجأوا اليها لياذا بأنفسهم من اضطهاد المشركين فى مكة ، فجاشت النفوس بالشوق والحنين الى صاحب الرسالة • وجاء القادم العظيم بعد طول انتظار وكان ذلك فى الثانى عشر من ربيع الاول الموافق ٢٨ من يونيو سنة ٦٢٢ ميلادية ، فدبت حياة جديدة

فى المدينة ، وتنافس الانصـــار من الاوس والخزرج على استضافة الرســـول ، وأرادت كل من القبيلتين أن تنفرد وحدها بهذا الشرف الخالد وما ترتبه عليه من مزايا سياسية واجتماعية . فماذا يصنع الداعى العظيم ؟ وأى المنـــازل يختار ؟ انه ليعلم أن الاوس والخزرج كانوا من قبل أعداء متقاتلين ، وأنهم حديثو عهد بالاسلام ، وأن ايثار رجـــل منهم دون غيره قد يثير كوامن النفوس ويهـــدد باندلاع الثارات القديمة بين القبيلتين .

هنا تتجلى الكياسة وحسن التدبير فى أرفع معانيهمـــا . لقد اعتذر النبى لمن دعوه من سادة المدينة للاقامة عندهم ، وامتطى ناقته القصواء ، وألقى لها خطامها فانطلقت فى دروب المدينة سائرة بين بيوت الانصار ، وهم من حولها يخلـــون لها طريقها وقد طغت عليهم مشاعر الفرحة والبشرى . وكلما مر الرسول بدار من دورهم قالوا : هلم يا نبى الله الى القوة والمنعة والثروة . فيقول لهم خيرا ، ويدعو لهم الله قائلا : « انها مأمورة فخلوا سبيلها » .

وجعلت الناقة تسير حتى كانت عند مربد لغلامين يتيمين من بنى النجار . هنالك بركت ، ونزل الرسول عنها ، وسأل: لمن المربد ؟ فأجابهمعاذ بن عفراء وقد رأى أن يتخذ النبى

هذا المربد موضعا لبناء مسكنه عليه والاقامة فيه : انه لسهل وسهيل ابنى عمرو ، وهما يتيمان له وسيرضيهما — بمعنى أنه سيعوضهما عن المربد — ، ورجا معاذ محمدا أن يتخذه مسجدا ، ولم يقبل الرسول هدية المربد وانما ابتـاعه من اليتيمين ، وأمر أن يبنى فى هذا المكان مسـجده وأن تبنى داره • وعمل بيديه فىالبناء يشاركه المهاجرون والانصار • فلما أتموا المسجد أقاموا من حوله مساكن الرسول وراحوا ينشدون :

اللهم ان العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

ولم يكد يستقر المهاجرون فى المدينـة حتى بادر النبى بتنظيم صفوف المسلمين وتأكيد وحدتهم للقضاء على كل شبهة فى أن تثور العداوة القديمة بينهم • فآخى بين المهاجرين وبين الانصار اخاء فريدا فى تاريخ العـالم ، اخاء وفاء واخلاص ، فقد كان الرجل من المهاجرين يرتبط برباط الاخوة فى الله بآخر من الانصار • فكان لكل من الانصـار أخ من المهاجرين ، يشاطره داره وماله وابله وتجارته • وكانت روابط الاخوة الجديدة أوثق من الاخوة الحقيقية التى يربطها الدم • فكان النبى وعلى بن أبى طالب أخوين ، وكان عمه حمـزة

ومولاه زيد أخوين ، وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين ، وكان عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين •

المهادنة بين القبائل

ولما اطمأن النبى بهذه المآخاة الى وحدة المسلمين ، وما كان لها من أثر فى احباط محاولة المنافقين الوقيعة بين الاوس والخزرج من المسلمين وبين المهاجرين والانصار ، عمل على تحقيق وحدة يثرب واقامة روابط الالفة والصداقة بين مختلف قبائلها وتعدد أديانها من مسلمين ومسيحيين ويهود فى اطار من التنظيم السياسى القائم على الحرية والتحالف • فكتب بين المهاجرين والانصار كتابا واعد فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم • ونص هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم •

هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين منقريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم : أنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم — أى على أمرهم الذى كانوا عليه — يتعاقلون بينهم وهم يفدون

عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين • وبنو عوف علـى ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين — ثم ذكر كل بطن من بطون الانصار وأهل كل دار : بنى الحارث ، وبنى ساعدة ،وبنى جشم ، وبنى النجار ، وبنى عمرو بن عوف ، وبنى النبيت ، الى أن قال :

وأن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم — أى المثقل بالدين والعيال — أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل • ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه • وأن المؤمنين المتعين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم — أى طبيعته — أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم • ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن • وان ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم • وان المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس • وأنه من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة — أى المساواة فى المعاملة — غير مظلومين ولا متناصر عليهم • وان سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم • وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضـا •

وأن المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماؤهم فى سبيل الله — أى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض فيما ينال دماؤهم • وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه • وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن • وأنه من اعتبط مؤمنا — أى قتله بلا جـريرة توجب قتله — قتلا عن بينة فانه قود به — دية — الا أن يرضى ولى المقتول • وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحـل لهم الا قيام عليه • وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا — أى جانيا — ولا يؤويه • وانه من نصره أو آواه فان عليه لعنة اللـه وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل • وانكم مهما اختلفتم فيه من شىء فان مرده الى الله والى محمـد (عليه الصلاة والسلام) • وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين • وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين • لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم الا من ظلم أو أثم فانه لا يوتغ — أى يهلك ويفسد — الا نفسه وأل بيته •

وأن ليهود بنى النجار ويهود بنى الحـارث ويهود بنى ساعدة ويهود بنى جشم ويهود بنى الاوس ويهود بنى ثعلبة

لجفنة لبنى الشطيبة مثل اليهـود بنى عوف • وأن موالى ثعلبة كأنفسهم • وأن بطانة يهود كأنفسهم • وانه لا يخرج منهم أحد الا باذن محمد (عليه الصلاة والسلام) • وأنه لا يتحجر — أى لا يلتئم — على ثأر جرح • وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته الا من ظلم • وأن الله على أبر هذا •

وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم • وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة • وأن بينهم النصح والنصيحة دون الاثم • وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه • وان النصر للمظلوم • وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين • وأن يثرب حرام جوفها لاهل هذه الصحيفة • وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم • وأنه لا تجاز حرمة الا باذن أهلها •

وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله والى محمد رسـول الله ، وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره • وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها • وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه • وأنهم اذا دعوا الى مثل ذلك فان لهم على المؤمنين

الا من حارب فى الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم • وأن يهود الاوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لاهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة• وأن البر دون الاثم ، لا يكسب كاسب الا على نفسه • وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره • وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم • وأن من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة الا من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى •

ولا يتسع المقام لتحليل هذه الوثيقة السياسية الدبلوماسية التاريخية التى تتجلى فيها أعظم مناقب الدبلوماسى الحكيم من بعد نظر وسلامة تقدير وسد لكل الذرائع فهى تسجل الحقوق والحريات المدنية والسياسية والعقائدية التى يكفلها الاسلام لليهود الموقعين على المعاهدة بالمساواة بينهم وبين المسلمين • كما تسجل الالتزامات التى ألقيت على كاهلهـــم والتى تتكافأ مع الحقوق التى كفلت لهم ، وهى التحالف فى الدفاع عن المدينة اذا هاجمتها قريش ، والتضـــــامن مع المسلمين فى احترام نصوص هذا التعاقد •

ولا أدل على مزايا هذا الحلف وسلامة تقدير محمد عليه السلام من أنه لم يمض غير قليل حتى أقبل يهود بنى قريظة

وبنى النضير وبنى قينقاع — وكانوا لم يشتركوا فى التوقيع على المعاهدة — يعلنون عن رغبتهم فى الانضواء اليهـا . ويقبل النبى هذا العرض فيوقعون ، وان كانوا — كعادتهم — سرعان ما قلبوا للنبى ظهر المجن ، ولم يقدروا مزايا الحلف الذى كفل لهم جميع الحقوق والحريات ، فخالفوا العهد الذى قطعوه على أنفسهم ، وبدأوا يكيدون للنبى وينكرون نبوته ويتآمرون ضده مع من بقى على الشرك من الاوس والخزرج ومن أسلم منهم نفاقا رغبة فى مغنم أو اتقاء لمغرم . وخيب الله مسعاهم الخبيث فأحبط أعمالهم « ولا يحيق المكر السىء الا بأهله » .

عقد المؤتمرات

خاض سفير السماء صلى الله عليه وسلم غمار مجادلات كثيرة بينه وبين اليهود ، كان سلاحهم فيها بث الشـكوك والريب ، وشن حملات الهمس بالبهتان ، وكان سـلاحه الصدق فى ابلاغ كلمة الله الحق . وحين علم نصارى نجران الموالون لملوك الروم من أهل النصرانية فى الشام ، بأمر هذا الجدل الدينى ، سفر الى المدينة منهم وفد من ستين رجـلا من شرفائهم وعلمائهم . وكان النبى صلى الله عليـه وسلم

المثل الكامل للمجادل بالحسنى فى سبيل الاقناع برسالة التوحيد حين انعقد فى المدينة ما يشبه المؤتمر من ممثلى الاديان الثلاثة .

ولم يستطع اليهود والنصارى أن ينكروا دعوة الحق : ألا يعبدوا الا الله ولا يشركوا به شيئا ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله . ولكن سلطان المال والجاه قد تغلب عليهم ، فلم يعلنوا قبولهم . أما اليهود فكان بينهم وبين رسول الله عقد الموادعة . وأما النصارى فقد أعلنوا الى رسول الله أنهم رأوا أن يتركوه على دينه ويرجعوا على دينهم . لكنهم رأوا حرصه على العدل حرصا احتذى أصحابه فيه مثاله ، فطلبوا اليه أن يبعث معهم رجلا يحكم بينهم فى أشياء اختلفوا عليها من أقوالهم . وبعث النبى معهم أبا عبيدة بن عامر الجراح — الذى قال فيه عليه السلام : أبو عبيدة أمين هذه الامة ، ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه .

صلح الحديبية

ومن أهم المواثيق التى عقدها الرسول عليه الصلاة والسلام صلح الحديبية ، وهو شاهد صدق ودليل لا يرجحه دليل على ما تفرد به الرسول من مواهب وخبرات المفاوض المثالى ، وما حفلت به سيرته من خصائص العبقرية

الدبلوماسية التى تتبلور فى الكياسة واللباقة والدقة فى معالجة الامور والفهم النافذ لعقلية الخصم ونفسيته والنظر الثاقب لـــا وراء اللحظة الراهنة فى تصريف سياسة الدولة من طريق المفاوضات وابرام المعاهدات مع الخصوم .

ويتجلى هذا المثل الرائع الذى ضربه محمد عليه الســـلام فى دبلوماسية المفاوضة فى تلك المعاهدة التى عقــدت بين الرسول والمشركين من أهل مكة وأتباعهم فى السنة السادسة من الهجرة وسميت صلح الحديبية .

فقد حرم المسلمون الحج والطواف بالحرم المقدس منذ هجرتهم الى المدينة ، وكابدوا الشوق الى أداء هذه الشعائر المقدسة التى فرضت عليهم كما فرضت على آبائهم من قبل. وما كان لقريش أن تصد المسلمين — دون سائر العرب — عن المسجد الحرام وهو وجهة العرب أجمعين فى عبـــادتهم منذ مئات السنين ، يحجون اليه كل عام فى الاشهر الحرم ، فمن دخله كان آمنا . ومنذ السنة الاولى من الهجرة عــدل محمد بقبلته عن المسجد الاقصى الى المسجد الحرام الذى بناه ابراهيم بمكة ، ونزلت آيات الله متتابعة فى بيته الحرام طيلة تلك السنوات .

فاذا كان شهر ذى القعدة الحرام رحل الرسول فى ألف وأربعمائة حاج ، يسوقون أمامهم الهدى (الابل) سبعين بدنة ، وسيوفهم فى أغمادها وهى من عتاد المسافر لا المحارب، وخرج من المدينة قاصدا مكة • وأراد أن يبين للناس أنه لم يخرج غازيا ولا مقاتلا ، فأمر بنثر الزهور على نحور الهدى، ثم أحرم بالعمرة وتبعه أصحابه ، وجهر بالتلبية « لبيك اللهم لبيك » فرددوها جميعا من بعده •

واشارته عليه السلام بوضع السيوف فى غمودها ونثر الزهور وجهره بالتلبية غاية فى فن الدبلوماسية الرشيدة ، فالزهور رمز السلام والتلبية دعاء الحق والايمان • فهو يقصد بهاتين الدلالتين أن يعلن على الملأ أنه يسعى لممارسة حق من حقوق المسلمين بمقتضى شريعة الله ، وليس للمشركين أن يحرموا ما حلله الله ، ولكنه يرغب ممارسة هذا الحق بالطريق السلمى لا بالحرب والقتال ، فهو قد خرج فى أحد الاشهر التى حرم الله فيها القتال زائرا بيت الله معظما له ، وقد لبس ثوب الحاج وتابعه أصحابه • فانصرفت اذن ارادته — كما دلت عليها هذه الظواهر — الى أداء فريضة فرضها الاسلام كما فرضتها أديان العرب من قبل • ولكى يؤكد هذه الارادة أوفد رسله الى القبائل من غير المسلمين

يدعوهم الى مشـــاركته الخروج الى بيت الله آمنين غير مقاتلين • وليس ثمة أبلغ من هذا الاسلوب الذى اتبعـه النبى فى كسب الانصار الى صفه ورد كيد الاعداء فى نحورهم، فهو يلزم قريشا الحجة أمام القبائل جميعا اذا سولت لهـا نفسها أن تصد المسلمين عن مسعاهم المشروع ، فان هى أمعنت فى ضلالها فقد استحقت بعدوانها غضبة العرب على اختلاف قبائلهم ، وكان المسلمون فى موقف الدفاع عن النفس والعقيدة المتمثلة فى أداء شعائر الحج والتى يشترك فيهـا العرب أجمعين • فهم فى حل من استخدام كافة الوسائل فى صد المعتدين ، وقد ظفروا بقوة الرأى العام تساندهم فى موقفهم وما أصلبها من قوة معنوية كبيرة تكسب لهم الانصار فيزدادون منعة ويعـز دينهم فى أعين من لا يؤمنـون به فيدخلون فى دين الله أفواجا وقد وضح الحق وزهق الباطل•

وتابع الرسول مسيرته ، حتى اذا كان بعسفان ــ قرية بين مكة والمدينة ــ جاء اليه من صحابته بشر بن سفيـان الكعبى ، وكان قد أرسل الى مكة عينا يستطلع أخبـــار المشركين ، فقال : « يا رسول الله ، هذه قريش قد سمعت بخروجك ، واستنفروا من أطاعهم من الاحابيش ، وأجلبت ثقيفا معهم ، ومعهم النساء والصبيان ليكون أدعى لعـدم

الفرار ، وأخذوا العوذ المطافيل (النياق) ليشربوا ويأكلوا ، وقد لبسوا جلود النمور ، عازمين على القتال حتى الموت . وقد نزلوا الآن بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلهـا عليهم أبدا . وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم ، قد قدموها الى كراع العميم » .

لقد عقد المشركون أمرهم ــاذنــ على الحرب ، وكشفوا عما أضمروا من غل وضغينة ، لم يثنهم على عزمهم هذا ما علموا من احرام المسلمين بالعمرة واعلانهم على الملأ أنهم ما قصدوا مكة الا حاجين لا مقاتلين ، وقد استعزت قريش بغير الله ولجأت الى القوة الغاشمة ، فعقدت لخالد بن الوليد وعكرمة ابن أبى جهل على جيش يبلغ عدد فرسانه وحدهم مائتين . وتقدم هذا الجيش حتى يحول بين محمد وأم القرى «مكة» ، وبلغ من تقدمه أن عسكر بذى طوى .

انه لموقف بالغ الدقة محفوف بالتوتر والخطر . فما السبيل للخروج منه ؟ هنا تتجلى حكمة الدبلوماسى العظيم فى مواجهة هذا الموقف الجلل . ان ثمة اعتبارات شتى مشحونة بالتناقض والغموض ، والامر يتطلب طاقة هائلة من ضبط النفس واعمال الفكر للتغلب على الازمة العصيبة والوصول الى العلاج الحق

لهذه المشكلة التى تنذر بشر مستطير • ولاشك أن انتهـــاج الوسائل الدبلوماسية فى هذا المجال هو الطريق القويم الذى يؤثره صاحب الرسالة لنجاح خطته •

ان قريشا تريد بما أعدته من أدوات الحرب أن تفـــرض القتال على النبى وقد أوصدت الابواب جميعا فى وجه السلم، ولا سبيل الى تراجع المسلمين عن بغيتهم وهم أصحاب حق وجنود رسالة ، فهل الحرب — ازاء هذا التناقض — أمر لا مفر منه ؟

لقد خرج النبى من المدينة الى مكة محرما يريد بيت الله ولم يخرج غازيا ، وهو لم يتخذ للحرب عدتها • ولعل قريشا قد أدركت ذلك فاستغفلته لتحقيق بغيتها بالدخول فى معركة غير متكافئة فيكتب لها النصر وتأخذ بثأرهـــــا من محمد ، فتشتفى بذلك وتهدأ حفيظتها وتسترد فخارها وكرامتها بين العرب !

ولكن الامر أعمق من ذلك ، فلا خوف على المسلمين من قريش ، فالحق أقوى من البغى وسينصر الله دينه ولو كره المشركون ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، الا أن محمدا اذا خاض غمار معركة فقد فوت قصده من الحج

وأتاح للمشركين تحقيق هدفهم بجر المسلمين الى قتالهم فتضيع المعانى والاهداف المنشودة من الرحلة •

لقد اهتدى النبى الكريم بعد تفكير الى مخرج من هذه الغمة ، وسرعان ما عدل خطته وفق ما يتطلبه الموقف الجديد ، ويبدو فى هذا العدول ما خطر عليه الرسول من بعد النظر والمرونة وتقدير العواقب وايثار السلم وغيرها من خصائص الدبلوماسية القديرة •

وهكذا نادى عليه السلام فى رجاله قائلا : « هل من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ » •

وواصل النبى سيره — فذاك أمر لا رجوع فيه — متفاديا الصدام بقريش بسلوك طريق آخر لا يفضى اليهم حتى يصل الى غايته • وكان طريقا وعرا مجهولا — أرشد المؤمنين عنه رجل من بنى أسلم — فدميت أقدامهم بين الشعاب الضيقة والسفوح الصخرية الحادة ، حتى اذا أفضوا الى سهل من الارض حمدوا الرحمن وصاحوا مع رائدهم الملهم : « نستغفرك اللهم ونتوب اليك » • وأغذوا السير حتى وصلوا أسفل جبل الحديبية الذى يقع جزء منه فى الارض المحرمة

والجزء الآخر فى الارض الحل ، وبينه وبين مكة مسـيرة يوم • فأمر الرسول المؤمنين بالنزول وضرب الخيام •

وتولت الاعداء دهشة بالغة اذ لم يلقوا محمدا على غير ما توقعوا • ولكنهم ما لبثوا أن علموا باتجاهه الجـديد ، فقفلوا راجعين يتقدمهم فرسانهم لحماية طريق مدينتهم ، ثم بعثوا برسول بعد آخر منهم الى النبى يستطلعون قصـده ويتعرفون قوته ويقنعونه بالعدول عن دخـول مكة • فتأكد رسل قريش أن نية محمد منصرفة الى الحج للبيت الحرام وأنه لا يريد حربا مع قومه ، وعادوا بهذا الخبر الى قريش •

غير أن هذه المحادثات لم تسفر عن نتيجة ايجابية وظلت قريش سادرة فى غيها • فأراد الرسـول أن يبعث من لدنه رسولا الى أشراف مكة يبلغهم رأيه لعلهم يجنحون الى السلم ويفيئون الى جادة الصواب ، فما كان منهم الا أن عقروا جمل هذا السفير وهموا بقتله لولا أن منعته حلفاؤهم من الاحابيش فخلوا سبيله •

وهنا يحسن أن نعقد مقارنة عاجلة بين دبلوماسية الرسول فى استقبال مبعوثى خصومه وتصرف قريش فى هذا المقام • لقد أكرم الرسول وفادة مندوبى قريش وأحسن لقاءهم شأن

الدبلوماسى المقدر لرسـالة الدبلوماسية العـارف بأقدار الدبلوماسيين وفضلهم فى التمهيد بالوسائل الودية للقـاء المتنازعين والتوفيق بينهم ، وما يتجشمونه من مشقة فى هذا السبيل ، تلك المشقة التى استحقوا من أجلهـا امتيازات خاصة وخلعت عليهم حصانات استقرت التقاليد المرعية منذ أقدم العصور على احترامها تقديرا لشرف الرسـالة التى يحملونها ومعاونة لهم على احسان أدائهـا لخير النـاس جميعـا •

لقد أوفدت قريش الى محمـد عروة بن مسعود الثقفى فاعتذر لهم بما رأى من تسفيههم من سـبقه من رسـلهم وتعنيفهم ، وكانت قريش قد أوفدت من قبله بديل بن ورقاء فى رجال من خزاعة يسألون محمدا ما الذى جاء به • فلمـا اقتنعوا من حديثه بأنه لم يأت يريد حربا وانما جاء زائرا للبيت معظما لحرمته ، رجعوا الى قريش يريدون اقنـاعهم ليخلوا بين الرجل وأصحابه وبين البيت العتيق • لكن قريشا اتهموهم وجبهوهم وصاحوا بهم : وان كان جاء لا يريد قتالا فوالله لا يدخل علينا عنوة أبدا ولا تتحدث عنا العرب • ثم بعثت قريش رسولا آخر فلم يسمع الا ما سمع صاحبه •

ثم أوفدت الحليس سيد حلفائهم من الاحابيش ، فلما رآه النبى مقبلا أمر بالهدى أن تطلق أمامه ، لتكون تحت نظره دليلا ماديا على أن هؤلاء الذين تريد قريش حربهم انما جاءوا حاجين معظمين للبيت فأيقن الحليس بذلك . وعاد الى قريش دون أن يلقى محمدا ذاكرا لهم ما رأى . فأغلظوا له فى القول فاستشاط غضبا وأنذر بالرجوع عن محالفتهم .

وأكدت قريش لعروة بن مسعود أنه عندهم غير متهم وأنهم يطمئنون الى حكمته وحسن رأيه . فخرج الى محمد وذكر له أن مكة بيضته ، وأنه ان يغصصها على أهله المقيمين بها بمن جمع من أوشاب الناس ثم انصرف هؤلاء الاوشاب عنه ، كان العار الخالد لقريش عارا لا يرضاه محمد وان اتصلت الحرب بينه وبين قريش ما اتصلت . فصاح أبوبكر بعروة منكرا أن ينصرف الناس عن رسول الله . وكان عروة يتناول لحية النبى وهو يكلمه ــ كما جرت العادة فى هذا العصر بين من يتسامرون ــ فبان الغضب فى عيون الصحابة وصاح فيه واحد منهم : « أكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن تقطع دونك » . ولكن الرسول منع أصحابه أن يمسوا سفير قريش .

وتلك هى الدبلوماسية فى أسمى أساليبها ومقاصدها ، حلم لا تزعزعه جهالة سفيه ، واطراح لفورات الغضب ، وتصميم على بلوغ الغاية الكبرى وغض الطرف عن الصغائر ، وسلوك سلمى حتى أبعد مدى ، على حين نجد فى الصورة المقـابلة قريشا وهى تعنف سفراءها لقولهم الحق الذى شهدوا آياته بأنفسهم ، وكان أولى بها أن تحمد لهم صدقهم فى مهمتهم التى أوفدتهم لانجازها وتفيد من نتائج بعثتهم ، ثم لاتكتفى بالاساءة الى مبعوثيها الدبلوماسيين بل تعقر جمل سـفير النبى وتريد قتله ، ضاربة عرض الافق بحقوق السفراء ، تلك الحقوق الفطرية فى علاقات القبائل أو الشعوب ببعضها ، فلا يجوز قتلهم أو حبسهم أو الاضرار بهم ، وذلك ليتمكنوا من أداء عملهم على خير وجه ، وتلك أولى قواعد الدبلوماسية منذ العصور القديمة .

لقد ساور المسلمين القلق حتى لقد فكر بعضهم فى القتال بعدما عانوه من اسـتفزاز قريش وما ساد تصرفاتها من روح الخصومة والبغضاء . ولكن محمدا الدبلوماسى الاعظم ظل رابط الجأش تشبثا منه بخطة السلم واحتراما للشهر الحرام أن يسفك فيه دم فى الحديبية وهى من حرم مكة . وخرق

أهل مكة كل عرف دبلوماسى وهتكوا القوانين المرعية فبعثوا بأربعين أو خمسين رجلا منهم ليطوفوا بعسكر رسول الله ويصيبوا لقريش من أصحابه • وكان المؤمنون على حـــذر فلم يؤخذوا بهذا العدوان ، بل كانوا هم الذين أصابوا من المشركين وأتوا بهم رسول الله ، ولكنه لم ير الخــروج عن موقفه السلمى فعفا عنهم وخلى سبيلهم ، رغم أنهم استحقوا القتل وفاق هجومهم الغادر • انها الدبلوماسية الحكيمــة التى تقهر أعتى القلاع بغير سلاح الا سلاح السلام ، والتى تسمو على الضغائن والاحقــاد وتتسم بالســمو والرجاحة والعبقرية •

وأراد النبى أن يختبر صبر قريش مرة أخرى ، وأن يتيح مجالا آخر لمد حبل المفاوضات وتبــــادل الرسل فى سبيل الوصول الى حل سلمى يرتضيه الطرفان • ولتسقط حجة قريش اذ كانوا يزعمون أن محمدا قد خرج محاربا ، وليعلم العرب الموالون لقريش أو المترددون من الذى يريد الحرب حتى اذا بدأت قريش بالعدوان وصموها بالغدر الدنىء ، وكان لمحمد الحق فى أن يدفعه بكل ما أوتى من قوة • فدعا النبى عمر بن الخطاب كى يبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له • فقال عمر : « يا رسول الله انى أخاف قريشا على نفسى ،

وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداوتى اياها وغلظتى عليها . ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى : عثمان بن عفان » .

فدعا النبى عثمان وبعثه الى أبى سفيان وأشراف مكة . فخرج عثمان فى سفارته ، فأبلغ سادة قريش رسالته . قالوا : « يا عثمان ان شئت أن تطوف بالبيت فطف » . قال : « ما كنت لافعل حتى يطوف رسول الله ، انما جئنا لنزور البيت العتيق ولنعظم حرمته ولنؤدى فرض العبادة عنده . وقد جئنا بالهدى معنا ، فاذا نحرناها رجعنا بسلام » . وأجابت قريش بأنها أقسمت لن يدخل محمد مكة هذا العام عنوة . وطالت المحادثة وطال احتباس قريش لعثمان رغم كونه سفيرا ، وترامى الى المسلمين أنه قد قتل غيلة وغدرا فى الشهر الحرام وهو ذاهب يحمل غصن السلام والموادعة بين يديه . ودخل فى روع النبى عليه السلام أن قريشا قتلت عثمان فقال : « لا نبرح حتى نناجز القوم » . وأمر عمرا أن يصيح بأعلى صوته فى المؤمنين : « أيها الناس ، البيعة ! البيعة ! نزل روح القدس ، فاخرجوا على اسم الله » .

واذ كان الرسول يتلقى المبايعة ، وقد عقد المؤمنون العزم على طاعته ، وهم يشدون بأيديهم على يده واحدا بعد آخر ليبايعوا على الموت ، بلغ الرسول أن ما ذكر له من عثمـان باطل ، فعدل عن خطة القائد المحارب دفاعا عن النفس ، وعاد الى سبيل الدبلوماسية • ولكن خبر تجمع المسـلمين وتأهبهم للحرب قد بلغ أسماع أهل قريش فساورهم القلق وبعثوا بسهيل بن عمرو ليفاوضهم وقالوا له : « ائت محمدا فصالحه ، ولا يكن فى صلحه الا أن يرجع عنـا عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخل علينا عنوة أبدا » •

فأتى سهيل بن عمرو الرسـول وأبلغه شروط الصـلح فقبلهـا •

ودعا الرسول على بن أبى طالب ليكتب وثيقة الصـلح فقال له : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » • فقـال سهيل مندوب قريش : « أمسك ! لا أعرف الرحمن الرحيم ، بل أكتب باسمك اللهم » •

فقال النبى : « أكتب باسمك اللهم » •

ثم قال : « أكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » •

فقال سهيل : « أمسك ! لو شهدت أنك رســول الله لم أقاتلك ، ولكن أكتب اسمك واسم أبيك » •

وروى أن عليا تردد فمسح النبى ما كتب بيده وأمره أن يكتب « محمد بن عبد الله » فى موضع « محمد رسول الله » • وهو تصرف يدل على المرونة والحنكة وسعة الافق • ونصت شروط الصلح على أن من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه ، رده عليهم ، ومن جاء قريشا من رجال محمد لم يردوه عليه ، ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه ، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا فلا يدخلوها ، على أن يدخلوا فى العام التالى ، فيقيموا بها ثلاثة أيام ، ومعهــم سلاك الراكب أى السيوف فى القرب • فلما سمع المؤمنون تلك الالتزامات ، بدأ لهم أنها ليست فى صالحهم ، فقــالوا فى قلق بالغ : « يا رسول الله أتكتب هذا ؟ » •

فأجاب الرسول باسما : « نعم ، انه من ذهب منا اليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه اليهم ، سيجعل الله له فرجا ومخرجا » •

ويدل عهد الحديبية الذى عقده الرسول مع أشراف مكة وما أفضى اليه من نتائج بالغة الاثر فى رفع لواء الاســلام

على مبلغ ما أوتيه عليه السلام من كمال الفهم وبعد النظر والرجاحة التى تميزت بها دبلوماسية الرسول الملهم • لقد كان اتفاقا ظاهره التسليم لقريش وباطنه الفتح المبين • وقد خفى هذا المرمى فى ذلك الحين على أصحاب النبى الاذكياء ، بل لقد ثار عمر بن الخطاب وتساءل عن سبب التسليم برغم أنهم المسلمون المؤمنون ، وأنهم على الحق وفيهم رسـول الله مصطفاه ، ولم يغير التساؤل والثورة من عزم محمد عليه السلام وقراره • وقال لعمر : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى » • فقد تضمن ميثاق هذا الصلح الذى أبرم فى القرن السابع الميلادى ، أمهـات القواعد والاصول التى وصلت اليها الدبلوماسية فى عصرنا الحديث •

فقد قبل الرسول شرط المفاوض القرشى فى اثبات الصيغة التى تستهل بها المعاهدة ، وهو ألا يكتب فى الديباجة سـوى ما يعترف به كل جانب للآخر من صفة ، ذلك أن عهد الحديبية انما يرمى الى الصلح بين فريقين متعاديين لم ترجح كفـة أحدهما على الآخر بعد حتى يملى شروطه ويكره المنهـزم على قبولها ، وهو عهد هدنة وسلام فلا ارغام فيه ولا اذعان•

وارتضى الرسول ألا ترد اليه قريش من أتاها من رجاله ،

ذلك أنه لا حاجة للمؤمنين بمثل هذا المرتد ، فالدين منه براء، ومن ثم فهذا الشرط لا يتنافى مع جوهر الديانة الاسلامية ، ولا تضار من اثباته •

كما ارتضى الرسول أن يرد الى قريش من جاءه منها ، وهو الشرط الذى أوقع المؤمنين فى دهشة ، لما يتعرض له مثل هذا المسلم من اضطهاد بين المشركين •

والحكمة فى قبول هذا الشرط أنه لن يضار منه الاسلام كذلك ، فان المسلم قوى الايمان لن تفقده ايمانه أو تنقص منه تلك المحنة وسوف يجعل الله له مخرجا ، أما الرجل ضعيف الايمان الذى يزعزعه اضطهاد المشركين فليس جديرا بأن تظله راية الاسلام •

ولم يلبث المسلمون أن أدركوا حكمة الرسول فى ارتضائه بهذا النص من نصوص المعاهدة ، كما أدرك المشركون أن هذا الشرط الذى حسبوه مغنما لهم قد تكشف لهم عن مغرم أى مغرم • فقد اجتمع من أسلم من أهل مكة وقصدوا محمدا فى المدينة فلم يقبلهم وفاء بعهده ، فألفوا فيما بينهم جماعة محاربة قوامها نحو سبعين رجلا خرجوا فى طريق قوافل القرشيين السائرة الى الشام عبر المدينة يغنمون منها بالحرب

مايقدرون عليه • وانضم اليهم رجال من بعض القبائل فبلغ عددهم ثلاثمائة مغير ، قطعوا على أهل مكة كل موارد المؤونة التى كانت فى طريقها اليهم • فهددتهم المجاعة ، وأعيتهم الحيلة ، فكتبوا الى الرسول يرجونه فى الغاء الشرط الذى أعجبهم أول الامر وكان موضع استحسانهم ، ويطلبون منه أن يحفظ عنهم فى المدينة كل من يهرب اليه من مسلمى مكة، وأن يبعث الى تلك الجماعة المحـــاربة ليقيموا حيث يقيم الرسول •

وقبل الرسول رجاءهم ، فكان كسبا له أن أفصح لقريش عن حسن نيته ومروءته وأنه قوى جيشه برجال أشـــداء كثيرين •

وبفضل دبلوماسية الرسول التى بلغت أرقى مراتب العظمة تحقق للمسلمين بعهد الحديبية انتصار يسجله تاريخ المسلمين فى أروع صفحاته حتى لقد خصه القرآن بمقام يكاد يوازى مقام غزوة بدر • فقد كان من نتائجه تثبيت دعائم الدين بما أفاده على المسلمين من قوة ، وما فتح لهم من أبواب يدخل منهــا من كان مترددا من أهل قريش ، ومن كان هاربا من اضطهادهم • وقد تمت فيه بيعة الرضوان حين تمثل للمسلمين

أن قريشا قد غدرت فقتلت عثمان بن عفان ودعا النبى للجهاد فبايعه أصحابه جميعا — وقد وقف تحت شجرة فى هـــذا الوادى — على ألا يفروا من الموت . وتعد هذه البيعة علما فى تاريخ المسلمين لدلالتها القوية على ترابطهم وتضحيتهم فى سبيل دينهم . وقد نزل فيها قوله تعالى :

« لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ».

وهكذا نال الرسول عليه السلام بالوسائل السلمية مالا يظن أنه ينال الا بالحرب ، وتلك أعلى مراتب الدبلوماسية . فكانت معاهدة الحديبية نصرا مؤزرا مهد للفتح الاكبر — فتح مكة — بعد ذلك بعامين . قال تعالى :

« انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما »

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٠ / ٥١٩٤

مطابع الأهرام التجارية